الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

والموسومة بـ:

الجماعات الدينية والعقائدية في المغرب الوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين

إعداد الطالبة:

- عثامنية الياقوت

إشراف الدكتور:

الطاهر بونابي

الموسم الجامعي: 2025/2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: .....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

والموسومة بـ:

الجماعات الدينية والعقائدية في المغرب الوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين

إعداد الطالبة:

- عثامنية الياقوت

إشراف الدكتور:

الطاهر بونابي

الموسم الجامعي: 2025/2024

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ الزمر 74

بهذا اليقين الذي أشرق في قلوب الصالحين.

أحمد الله تعالى وتبارك اسمه الذي وفقني وأعانني على إتمام هذا العمل، وما كان لي أن أقطع أشواطه لولا توفيقه ورعايته. فله الحمد والشكر.

ثم أتوجه بخالص الامتنان والشكر إلى أستاذي الفاضل ومشرفي، **طاهر بونابي**، الذي لم يبخل عليّ بنصائحه وتوجيهاته السديدة، وكان لي معينًا ومرشدًا في كل مراحل هذا البحث.

كما لا أنسى كل من قدم لي يد المساعدة والدعم في إنجاز هذا العمل، فلهم مني صادق الدعاء والوفاء.

إلى والديّ العزيزين، معينيّ بالصبر والدعاء، اللذين كانا سندي وملاذي، أرفع كلمات شكري التي لا تفي بحقهما مهما طالت، كما أهدي ودي وشكري إلى أختي الصغرى **"يسري"**، كانت بنقائها وبسمتها بلسمًا يخفف عني عناء الطريق.

وكل الحمد لله رب العالمين.

إهداء

إلى من يبحث في الظلال عن صدى صوته....

ويخفي بين الحروف سره العميق...

فالتاريخ يروي ما مضى...

والكتابة تفصح عمّا لا يقال....

ومن بينهما يتولد الرقي...

ويسطع التميز، كاشفًا المستور والضياع.

مقدمة

مقدمة:

أ/ أهمية الموضوع وإشكاليته:

على الرغم من الجهود العلمية التي بُذلت في دراسة الجماعات الدينية والعقائدية في المغرب الأوسط، إلا أن العديد من الزوايا الأساسية لا تزال بحاجة إلى تعميق وإعادة قراءة من منظور شمولي.

فقد أدى الاعتماد على المصادر التاريخية القديمة، لم يصحبه نقد موضوعي وتحليل معمق، بل فقط على ضوء ما جاء ضمن أحداث تاريخية للمغرب، مما أوجد ثغرات معرفية يجب سدها بدراسة أكثر شمولاً واتصالاً[1]. كذلك لم تركز كثير من دراسات الباحثين عن الدور الواسع والشامل للعصبيات القبلية البربرية في تفكيك وتركيب المشهد السياسي والديني بالمنطقة[2]، حيث لم يُعطَ لهذه العصبيات الدور الفاعل في تأييد أو مقاومة جماعات، إذ اقتصرت بعض الدراسات على إبراز الدور المؤسسي والشخصي لبعض القادة أو الجماعات، متجاهلة بذلك الدور الاقتصادي للدولة إلا في إشارات عامة[3]، كما لم تحظَ الأبعاد الاقتصادية المرتبطة ببعض القبائل والجماعات المذهبية، خاصة في مناطق مثل كتامة، بالاهتمام الكافي اقتصاديا[4]. مما أضعف الفهم المتكامل لدور هذه القبائل في تأسيس المشروعات السياسية والاقتصادية المرتبطة بالدعوات الدينية. إضافة إلى ذلك، فإن المعالجة لبعض المذاهب والقبائل مثل زناتة والمذهب الزيدي وعلاقتها به، ظلّت في البحوث إشارات طفيفة لا تعكس التفاعل الديناميكي والمعقد بين القوى القبلية والمذهبية[5].

وقد أظهرت هذه الجوانب غير المطروقة الحاجة إلى دراسة أكاديمية تسعى إلى سد هذه الفراغات، من خلال التركيز على تمركز الجماعات الدينية في المغرب الأوسط في الحصون والمواضع الوعرة، كما تبرز الدراسة دور الانتماءات القبلية البربرية في تأطير المشروع السياسي والديني، إلى جانب الدور الاقتصادي الذي دعم استمرار هذه الجماعات، مما يعكس تفاعلات معقدة في تنشيط المجتمعات المغربية خلال هذه الحقبة.

وقد كان اختيار موضوع الجماعات الدينية والعقائدية نابعًا من أهمية الجانب المذهبي في التاريخ الوسيط، الذي يعتبر ركيزة أساسية تتيح للطالب فهما شاملا وعميقا لجميع جوانب التاريخ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، مما يسهم في إغناء مداركه وتوسيع آفاقه المعرفية.

(1)ابن خلدون (ت 880هـ). العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ابن عذاري المراكشي (حي (712هـ)، البيان المغرب في ذكر إفريقية والمغرب.

(2) إبراهيم بجاز، الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والفكرية.

(3) محمود اسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ) حقائق جديدة.

(4) موسى لقبال: دور كتامة في الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م).

(5) محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي.

الإشكالية:

كيف يمكن تفسير اختيار الجماعات الدينية والعقائدية في المغرب الأوسط للحصون والمواقع الموروثة مراكز لانطلاق دعواتها ومشروعاتها السياسية؟

وهل كان الانتماء القبلي وحده محددا الانتماء المذهبي، أم أن ضرورات السياسة وتوازن القوى كانت وراء هذه الخيارات؟ وكيف أسهمت العصبية القبلية في دعم أو إضعاف هذه الكيانات؟

ب/ المنهج:

أدى هذا البحث إلى استقراء وتحليل النصوص التاريخية المتعلقة بالجماعات الدينية في المغرب الأوسط، مع التركيز بشكل خاص على الجانب الاقتصادي للإباضية. ويرجع ذلك إلى طبيعة هذه المصادر خاصة الإباضية، التي غالبًا ما تفتقر إلى بيانات مباشرة أو تفصيلية. كما اعتمد البحث على قراءة متأنية للنصوص مع الاستنباط وتخمين المعاني المحتملة التي يمكن أن تسهم في تكوين صورة أشمل عن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للجماعات الدينية في تلك الحقبة، وقد تم التعامل مع هذه النصوص بمنهج نقدي، يأخذ في الاعتبار الخلفيات العصبية للقبائل والامتداد التاريخي، ما يضمن تقديم صورة متكاملة ومتوازنة للموضوع.

ج/ الصعوبات:

- **الموضوعية:** في هذا البحث كانت الصعوبة في الربط الدقيق والمنهجي بين الانتماءات القبلية والأحداث السياسية والصراعات المذهبية، مع تقديمها بأسلوب واضح وميسر يمكن القارئ من فهم السياق والتفاعلات التاريخية بشكل جلي.
- **الذاتية:** فتكمن في الخوض المتعمق في الجانب العقدي الذي يستوجب اطلاعًا واسعًا وباعًا عميقًا في المعلومات المتعلقة بالجماعات وخاصة الجانب العقدي، وذلك بسبب طبيعة هذا الجانب الذي يَحفل بالكثير من الأفكار المثيرة للجدل إلى يومنا هذا، مما يجعل البحث العلمي في هذا المجال ينطلب موسوعة معرفية واسعة وجهدًا كبيرًا لتقديم رؤية متزنة وموضوعية.

د/ عرض الموضوع:

بعد جمع المادة العلمية وصياغتها، جرى تنظيم البحث في ثلاثة فصول، يسبقها مقدمة وتليها خاتمة مع إرفاق ملاحق وقائمة بالمصادر والمراجع إضافة إلى فهرس المحتويات.

تناول الفصل الأول: التمركز الجغرافي والعقائدي للجماعات الدينية في المغرب الأوسط خلال القرن الثاني للهجرة، متضمنًا عناوين دراسة في الجماعات الدينية التي تمركزت بالريف الصنهاجي وإقليم الزاب والصحراء من العلويين والشيعة الإسماعيلية والإباضية، إضافة إلى جماعات أخرى مثل: الكرامية والواصلية والشراة.

والفصل الثاني كان تحت عنوان "**الجماعات الدينية والمشروع السياسي**"، وتناول بدايته مدلولات النسب في القبائل من خلال قراءة في مصطلحي "**ال**" و"**بنو**" وما تحمله من دلالات الامتداد النسبي، ثم القبيلة والجماعات الدينية في المغرب الأوسط من الانتماء إلى الطموح السياسي، وفيه: الإباضية بين الارتكاز القبلي وبناء الكيان السياسي، والقبائل البربرية والمشروع السياسي للعلويين في المغرب الأوسط، الإدريسيون السليمانيون، وأخيرًا جاء فيه: الشيعة والقبيلة من الدعوة المذهبية إلى الطموح السياسي.

أما الفصل الثالث فقد خُصص للدور الاقتصادي للجماعات الدينية في المغرب الأوسط، مستعرضًا النشاط الزراعي والرعوي إضافة إلى النشاط التجاري والصناعي.

هـ / نقد المصادر والمراجع

1. **المصادر**

– التاريخية:

– ابن خلدون (ت 808)، كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، والذي أفاد البحث وكان الأساس في سياق الدراسة، إذ من خلاله رُصدت القبائل البربرية والتي انتمت إلى كل طائفة وجماعة دينية، وذلك أنه تناول تاريخ المدن والدول في المغرب الإسلامي، وكذا المجتمع ضمن تاريخ القبائل قبل الفتح وبعده، مع تحديد مواطنهم وأنساب القبائل وفروعها و أنماط معيشتها. ويبرز كذلك الجوانب التي تتقاطع مع العرب، وتطورها السياسي والعسكري واتجاهاتها المذهبية الدينية التي ساعدت في استقاء أخبار القبائل التي كانت السند للجماعات، ويتوفر على معلومات قيمة عن القبائل وعاداتها وتقاليدها. وحتى طبائع البربر و سيماتهم في عرض يساعد القارئ على فهم هذه القبائل

إلا أن لغة النص كانت أحيانا معقدة وصعبة الفهم. مما يجعل من الصعب استيعاب معاني النصوص بشكل جيد.

– ابن عذارى المراكشي (كان حي712): البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، والذي يعد من المصادر المهمة والمعتمدة في البحث، هذا وذلك لاشتماله على معلومات هامة من الفتح إلى غاية الدولة الموحدية، ورغم تركيزه على الحروب وأخبار الولاة والأئمة والخلفاء والدول فإنه يتوفر على إشارات هامة في جزئه الأول حول القبائل البربرية ومواطنها ومذاهبها وعلاقتها بالدول وأدوارها في مختلف الصراعات السياسية والمذهبية. فكان مصدرا هاما للبحث استقيت من جزئه الأول عن القبائل البربرية وحضورها في الصراع المذهبي والسياسي وفي الحديث عن العبيدين خاصة، كما أنه ساعد في فهم سير الأحداث السياسية في المغرب.

– كتب الطبقات والتراجم:

– الدرجيني، أبو العباس (630هـ)، في كتابه طبقات المشائخ رغم تناوله الكتاب التعريف شيوخ المذهب الإباضي لكنه قدم معلومات هامة حول ظهور الإباضية بالمغرب وثوراتها وتفاعل القبائل البربرية خلالها وتأسيس الدولة الرستمية وأهم الأحداث السياسة فيه.

– ابن أبي زكرياء (471هـ)، سير الأئمة وأخبارهم، هذا الكتاب بالرغم من أنه يختص في التراجم والسير للإباضيين، إلا يتناول ضمنيا أحداث التاريخ الإباضي منذ نشأة الأولى وحتى السقوط وما بعد السقوط، وساعد في اقتفاء أثر الإباضيين وكذا أئمتهم منذ بداية الدعوة وحتى آخر إمام، وكذا أفاد في ذكر أحداث السقوط للدولة الرستمية، وما بعد السقوط.

– ابن الصغير المالكي (القرن الثالث هجري): هذا الكتاب يتحدث عن الأئمة الإباضيين وسيرتهم، فقد أفادني كثيرا في تتبع أثرهم السياسي والعسكري، وكيف كان دورهم في الصراعات المذهبية السياسية. وقد كان المصدر الوحيد الذي أشار إلى الجانب الاقتصادي إشارات بسيطة مكنت من الوقوف على أثرهم في هذا الجانب.

– كتب الجغرافيا والرحلات:

اليعقوبي (292هـ): في كتابه *البلدان*. واليعقوبي هو أحد الجغرافيين الذين زاروا البلاد المغرب أواخر القرن الثالث هجري، فزودني فمعلومات هامة في تحديد مواضع القبائل البربرية ضمن نطاقات الريف الصنهاجي والصحراوي، وزودني كذلك بمعلومات ذات نفع شامل في معرفة أوضاع المغرب الأوسط الاقتصادية، وخاصة التجارة البحرية والبرية أواخر القرن الثالث هجري، مع وصف لأهم مدنه وقراه.

البكري (ت 487هـ): في كتابه *المسالك والممالك*، ورغم أنه لم يكن من الرحالة ولا زار المغرب، فقد جمع المعلومات الواردة لديه عن بلاد المغرب من المؤلفات، فقدم معلومات جغرافية وتاريخية في نفس الوقت، فهو من أهم المصادر الجغرافية التي تمكن الباحث من رصد مناطق توزع القبائل البربرية ومدنها الكبرى، كما أنه يفيد الجانب الاقتصادي، إذ يذكر ويفصل جل الطرقات والمسالك فيما بين المغرب ذاته وبين العالم الإسلامي من الأندلس إلى المشرق إلى السودان كذلك.

الإدريسي (ت 560هـ): *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، هذا الكتاب قدم نفعا شاملا في الجانب الاقتصادي، إذ أنه ساعد على رصد المسالك التجارية وذكر جميع السبل كما أوضح الصادرات والواردات التي تتم بين القوافل.

– كتب العقيدة:

الشهرستاني (548هـ): *الملل والنحل*، كان لهذا الكتاب الأثر البارع في إثراء الجانب العقدي من الدراسة، إذ مكنني من تتبع عقائد الجماعات الدينية المختلفة والوقوف على أبرز معتقداتها، فضلا عن إلقاء الضوء على مسار انتقالها إلى المغرب.

– المراجع:

– موسى لقبال، *دور كتامة في الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)*، ساعدني في تتبع دور كتامة السياسي والعسكري والقبلي، إضافة إلى الحديث عن سياسة الفاطميين والصراعات المذهبية خاصة عند المالكين.

– بحاز ابراهيم: *الدولة الرستمية (160 - 296هـ / 777 – 909م)* دراسة في الأوضاع الفكرية والأوضاع الاقتصادية، لقد شكل كتاب بحاز مرجعا رئيسيا ومحورا في دراستي، زودني بإطار تاريخي وتحليلي متكامل حول الأوضاع السياسية والاجتماعية للدولة الرستمية في القرون الهجرية الأولى، وقد أفادني الكتاب في تسليط الضوء على التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة مع تقديم آرائها وتفسيراتها الثرية تدعم بناء فهم معمق للفترة المدروسة.

– بن عميرة مُحَمَّد، دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، ساعدني هذا الكتاب في معرفة دور زناتة ومواقفها من جميع مذاهب الجماعات الدينية والعقائدية ومواطنها، وكذا الجوانب المشتركة بينها وبين الجماعات القادمة من المشرق، وكذا دورها على الساحة السياسية، من دور سياسي ومن صراعات المذهبية القبلية وكذا اجتماعي.

– محمود إسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى (172هـ-375هـ): إذ يقدم قراءة معمقة للواقع السياسي والاجتماعي لعصر الدولة الإدريسية، كما يعكس الكتاب الأبعاد القبلية والدينية التي شكلت دعائم هذا الكيان السياسي. كما يسلط الضوء على الصراعات المذهبية والتوازنات السياسية التي ساهمت في تشكيل المشهد التاريخي للمنطقة، إلا أنه تحدث عن الجانب الاقتصادي، في شكل عام لا يوضح ملامح هذا الجانب الذي يمثل ركيزة الدولة.

وفي الختام أخص بالشكر الجزيل أستاذنا الجليل بونابي، إذ كان خير مؤطر وموجه، كما أرفع آيات الامتنان لأستاذنا الفاضل بو لطيف، لما أسداه من عون كريم ومشورة نافعة طيلة مسيرة هذا البحث.

الفصل الأول:

التمركز الجغرافي (والعقائدي) للجماعات الدينية بالمغرب الأوسط خلال القرن الثاني للهجرة

1- الجماعات الدينية التي تمركزت بالريف الصنهاجي

2- إقليم الزاب

3- إقليم الصحراء

4- عقائد الجماعات الدينية

في القرن الثاني الهجري شهد المغرب الأوسط ظهور جماعات دينية عقائدية متعددة أثرت على المشهد الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمنطقة. اختارت هذه الجماعات المغرب الأوسط لبعده على مركز الولاية التابعة للخلافة المشرقية، فاتجهت نحو الريف الصنهاجي والصحراء كحصون آمنة لها لنشر دعوتها وتأثيرها بين سكان البربر، وكسب تأييد واسع النطاق.ويأتي هذا الفصل ليدرس التمركز الجغرافي والعقائدي لهذه الجماعات والعوامل التي ساهمت في هذا التمركز واستهداف هذه المناطق

1- الجماعات الدينية التي تمركزت بالريف الصنهاجي

1-1- السلمانية والإدريسية:

وما نشأ عن الفتنة الكبرى بين المسلمين من تباين في الأهواء وتصارع بينهم، كان من دواعي تفكير أهل البيت وأتباع علي بن أبي طالب وأولاد و ﷺ، في إقامة كيان سياسي بمنأى عن هيمنة الدولة الأموية وكذا العباسية، استردادا- في زعمهم- لحقهم المغصوب في الخلافة، وقد تفرقت كلمتهم في أمصار المشرق والمغرب وكان من جملة من لجأ إلى بلاد المغرب، ادريس بن عبد الله، و أخوه سليمان، ممن سعوا إلى بسط دعوتهم في آفاق بعيدة، اتخذوا فيها من المذهب الزيدي الاعتزالي سبيلا لنشر دعوتهم ومشروعهم السياسي، وكانت تلمسان يحسب ما أوردته المصادر أول موضع أواهم، ومهد حركتهم الأولى في البلاد المغربية، " وكان الإمام مُحَّد النفس الزكية...، وكان له ستة إخوة وهم: يحي، سليمان، إبراهيم، موسى، عيسى وإدريس، فبعث أربعة منهم إلى الأمصار يدعون إلى طاعته وبيعته .....، وبعث عيسى إلى إفريقية،فأجابه خلق كثيرة من قبائل البربر ويقي هناك إلى أن توفي ولم يتم الأمر"[1]، ويبدو أن نزول إدريس وأخيه سليمان ببلاد المغرب لم يكن أمراً مستنكر لدى البربر، إذ كانت الدعوة العلوية قد وجدت سبيلها إلى هذه الديار من قبل منذ قدوم عيسى الذي لم يرحل حتى يتم أمر ذلك،أنه اتبعه خلق كثير من القبائل، لكنه هلك قبل بلوغ الغاية، فتهيأت الأرض لمن جاءه بعده من أهل البيت، وسهل عليهم في نهج الدعوة لاسيما بعد وقعة فخ[*]، التي جعلت من اللجوء إلى المغرب ضرورة تمليها

(1) علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي (ت 741هـ)، الأنيس المطرب يروض القرطاس في أخبار ملوك و تاريخ مدينة قاس، تح، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص15.

(*) وقعة فخ بدأت حركة النفس الزكية مُحَّد ضد العباسيين بإرسال أخيه إبراهيم إلى البصرة فسيطر عليها، وامتد نفوذه إلى الأهواز وفارس، ثم خرج بنفسه إلى مكة سنة 45هـ فتولاها، وخطب بالناس، وتسمى بالمهدي، تصدى له الخلفية المنصور بإرسال عيسى بن موسى الذي هزمه وقتله في المدينة، أما إبراهيم فقد قتل لاحقا في البصرة، بنفس السنة، وفي سنة 169 هـ، خرج الحسين بن علي بن الحسن المثنى، وقتل في موقعة فخ قرب مكة، وفر عمه ادر بن عبد الله إلى المغرب، أنظر ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق ص 16. و ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة الصادر بيروت : 47 - 1950 م، ج1، ص 100.

الحال و مخرجا من بطش السلطان العباسي، "وبعث (أي الامام مُحَمَّد النفس الزكية) أيضا أخاه سليمان إلى بلاد مصر داعيا للبيعة واتصل به قتل اخيه، سار إلى بلاد النوبة ثم إلى بلاد السودان ثم خرج إلى الزاب أفريقية، ثم سار إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها، وذلك في أيام أخيه[1]، وذلك يدل على أن ادريس قد سبقه إلى هناك في تلمسان ثم غادرها قاصدا وليلي، فاستقر بها امره واتخذها دارا لسلطانه، غير أنه لم يلبث حتى عاد إلى تلمسان بعد حين فدخلها فاتحا، وقد انقاد القوم له وأذعنوا إليه، "فلم يزل إلا على ذلك حتى وصلا إلى مدينة تلمسان فاستراحا بها أياما، ثم ارتحلا عنها إلى بلاد طنجة .... حتى نزل مدينة وليلي"[2]، ويلحظ في شأن قدوم سليمان إلى بلاد المغرب اختلاف بين الروايات، فقد ذكر ابن خلدون أن دخوله كان بعد أخيه إدريس، وأما سليمان أخو إدريس الأكبر فإنه فر إلى المغرب أيام العباسيين، فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس – وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة، وطلبه ولاة الأغالبة فكان في طلبهم تصحيح نسبه[3]، بينما ذهب أبو زرع الفاسي إلى أن ذلك جرى في حياه أخيه إدريس كما ذكرنا سابقا[4]، وأما اسماعيل العربي فقد أورد في دراسته أن بعض المصادر التي اعتمدها تشير إلى مقتل سليمان بن عبد الله في وقعة فع وأن ابنه هو من تولى الإمارة. "فإن مصير سليمان بن عبد الله نفسه مختلف فيه، فإن بعض المؤرخين يذكرون أن سليمان قد قتل في وقعة فخ، يوم التروية سنة 169 هـ، والبعض يذكر أنه هو من تولى الإمارة، وبينما يروي الآخرون أن مُحَمَّدا ابنه هو من تولى الإمارة بتلمسان[5]، والأقرب – بالنظر إلى تباين هذه الروايات – أن منشأ الخلاف يعود إلى ملابسات دخوله الأول إلى تلمسان، أو لطبيعة قدومه المتكتمة وما اتصل بها من كتمان نسبه، مما أوقع بعض الرواة في الخلاف، أهو الذي دخل أم ابنه؟ وهل كان ذلك في حياة إدريس أم بعد وفاته؟ وقد يكون موضع الالتباس أيضا في تواريخ التحرك الأولى قبل وقعة الفخ، والاستقرار بين أطوار التنقل الأولى وبداية التمكن الأولى، وإذا كان ما سبق من اختلاف الروايات يخص طور القدوم الأول، فإن ما أورده اليعقوبي يندرج في سياق لاحق يتعلق بما استقر عليه أمر بني سليمان بعد التمكين، ويفهم من كلامه تحديد المواضع التي دخلت تحت سلطانهم زمن استقرار إمارتهم، مما يدل على اتساع رقعتهم الجغرافية وسلطانهم،"ومن هذا الموضع البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن الحسين بن

(1) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 16

(2) نفسه، ص–ص 18–19.

(3) عبد الرحمن، ابن خلدون بن مُحَمَّد أبوزيد الاشبيلي التونسي (ت 808 هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000 م،ج 4، ص23.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 16

(5) اسماعيل العربي، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وفرطية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص–ص 137 – 138.

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأول المدن التي في يده يقال لها هاز سكنها قوم من البربر القدم يقال لهم بنو برنيان من زناتة وأيضا، ثم بعض مدن صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس ..... إلى هازينسب البلد"[1].

ومن جملة المواضع التي دانت لبني سليمان تقاسمها بنوه بعد التمكين، إقليم متيجة"ثم بصير إلى بلد يقال متيجة تغلب فيه من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون وهو بلد زرع وعمارة"، ومدينة مدكرة "ثم مدينة مدكرة فيها من ولد مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[2]، والمدينة الخضراء التي بها عدة حصون وقرى تملكها نبو سليمان حسب ما ذكر اليعقوبي "ومدينة الخضراء يتصل بها مدن كثيرة وقرى ومزارع، يتغلب على هذا البلد ولد مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن ... كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية عددهم كثيرة، حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم"[3]، ويذكر أيضا من بين مدنهم المدينة العظمى التي يقال لها غطلاس وسوق إبراهيم ونمالتة، ومدينة فالوس،"ومسكنهم في المدينة العظمى التي يقال لها غطلاس، وأهل هذه المملكة قوم من بطون البربر.... وآخر المدن التي في أيديهم المدينة التي تقرب من ساحل البحر يقال لهم سوق إبراهيم.... فيها رجل يقال له عيسى بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله..."ثم منها مدينة نمالثة فيها مُحَمَّد بن علي بن سليمان..... وآخر مملكة مُحَمَّد بن علي من سليمان من عبد الله بن الحسن بن الحسن مدينة فالوس وهي مدينة عظيمة..."[4]، وإن ما ذكره اليعقوبي من المواضع التي كانت تحت سلطان بني سليمان بن عبد الله، يدل دلالة بينة على شده نفوذهم. وأن كامل تلمسان بأيديهم. ويفهم من الروايات التي وقفنا عليها أن الإمارة قد انقسمت بين أبنائه، وتوزعت نواحيها بينهم في صورة تبرز امتداد الحكم العلوي في تلك الديار على نحو تعددي منسجم مع طبيعة التمركز الجغرافي والسياسي آنذاك، وقد أكد البكري في المسالك و لك والممالك ما أورده اليعقوبي من ذكر المواضع التي خضعت للإمارة السلمانية عليها مواضع أخرى كانت من نطاقهم، مثل تنس وما جاورها، كما أفاد بذكر بعض الحصون القائمة بتلمسان، مما يبرز تحصين مواضعهم واستغلال الحصن الموروث، "وأصحاب تنس من ولد إبراهيم بن مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[5]، وأما الحصون فيذكر منها: "ومنها إلى حصن تانكرمت، وهو أيضا على

(1) أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الشهير باليعقوبي (284 هـ)، البلدان، تح مُحَمَّدامين صناوي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، (د.ت)، ص 191.

(2) نفسه، ص 192

(3) نفسه، ص 192

(4) نفسه، ص ص 192، 196.

(5) عبد الله بن عبد العزيز بن مُحَمَّد أبي عبيدة البكري (ت 487 هـ)، المسالك والممالك، تح جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ج 2، ص 242.

الساحل" وهذه على ساحل تلمسان، "وحصن مرنيسة البير ثلاثة أميال، وهو حصن حصين، ومنها إلى حصن بني زيني.... ولهذا الحصن نهر كثيرة الثمار"[1]، ومن المناطق التي كانت بحوزتهم "ويسكن مدينة نرنانا فخذ من بني دمر يسمون بني يلول، وكان بها عبد الله البرناني بن ادرس بن مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب"[2] ثم لم تلبث الإمارة السلمانية أن آلت بعد حين إلى بني إدريس، و قد ذكر ابن أبي زرع الفاسي أن مُحَمَّد بن ادريس بن ادريس قسم المملكة على إخوته "و لما ولي قسم المغرب بين اخوته، وذلك برأي جدته كنزة أم أبيه. ولّى أخاه القاسم مدينة طنجة.... أخاه حمزة مدينة تلمسان وأعمالها..."[3]، وأكد هذا القول ابن عذارى حيث أفاد أن محمدًا وزع البلاد على اخوته بحسب الأقاليم "فولي منهم مُحَمَّد بن ادريس. ففرق البلاد على اخوته بأمر جدته كنزة"[4]، وهذه الروايات يتضح أن يبني ادريس أيضا ملك تلمسان مع بني عمومتهم من آل سليمان، بما يشر إلى تلاقي السلطتين في تلك الحقبة من المغرب الأوسط.

1-2- الشيعة الاسماعيلية (العبيدية/ الفاطمية):

ومن جملة المذاهب التي استوطنت الريف الصنهاجي في تلك الحقبة، مذهب الشيعة الإسماعيلية، الذي بسط نفوذه في بعض تلك الأنحاء، واتخذ من قبائل كتامة سندا لبسط دعوته، فقد بدأ التمهيد لنشر الدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب في القرن الثاني الهجري. وقد تميزت هذه المرحلة بتوجه الدعاة جعفر الصادق (الحلواني وأبي سفيان)*، "فتزل أحدهما ببلد مزاغة، والآخر ببلد سوق جمار، وكلاهما من أرض كتامة، ففشت هذه الدعوة في تلك النواحي"[5]،إذأنهم في في مجالات جغرافية متنوعة، شملت القبائل الريفية ومراكز الاستقرار المحلي. كما عمدوا إلى اتخاذ الحصون الموروثة الموجودة في بلاد المغرب الأوسط خاصة كمراكز آمنة لنشر دعوتهم، ونقاط ارتكاز لتعزيز وجودهم، وقد أشار إلى هذه الحصون والمناطق الجغرافية كل من اليعقوبي والبكري، حيث قدما و صفا جغرافيا يبرز توزع الشيعة، حيث ذكر البكري "بلزمة لمزاثة حصن أولي، وهو في بساط من الأرض، كثير المزارع والقرى. وفي قراه حصون كثيرة"[6]، ويلحظ تميز الوجود الإسماعيلي

(1) البكري، ج2، ص-ص 262-263.

(2) نفسه، ج2، ص 264.

(3) ابن أبي زرع القاسي، المصدر السابق، ص 51.

(4) أحمد بن مُحَمَّد المراكشي المعروف بابن غذارى (695هـ)، البيان المغرب في أخبارالمغرب، مكتبة صادر بيروت - 47 / 1950، ص300.

* دعاة جعفر الصادق (الحلواني و ابي سفيان): كان أصل ظهورهم بأفريقية دخول الحلواني وابي سفيان من شيعتهم إليها أنهم أنقذهما جعفر الصادق وقال لهما بالمغرب أرض بورفاذهبا واحرثاهاحتى بجيء صاحب البذر ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص-ص 40-41

(5) نفسه، ج 4، ص-ص 40-41.

(6) البكري، المصدر السابق، ج2 ص، 227

في مبتدأ دعوته بكثرة الحصون التي أخذها أهل المذاهب ملاذا مؤلا، إلى جانب استقرارهم في مواضع أخرى متفرقة من أرض المغرب.

"ومدينة تيجس وعليها سور صخري رومي، ولها ربض وبها أسواق .... وبها قبائل البربر نقرة ووغرعروسة وبنونمواوكزتابة وحمزة من زناتة"[1]، "ومدينة قسنطينة وهي مدينة أولية كبيرة وآهلة ذات حصانة ومنعة، وهي على ثلاثة عظام، وسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونقراوة ... وهي لقبائل كتامة"[2].

وقد امتد هذا الانتشار إلى نواح عديدة من المغرب الأوسط بفعل كثرة الاتباع من كتامة والجهات القريبة منها، مما مهد لمد نفوذ الدعوة الاسماعيلية وتوسعها، ويفهم ذلك مما أورده أصحاب الاخبار من مؤرخي القرن الثاني والخامس الهجري ولعل أبرزهم اليعقوبي والبكري، ولم تكن مواضع الإسماعيلية محددة على وجه التعيين والاستقرار والثبات في موضع واحد إلا بعد شيوع الدعوة، فقد أثبت لها موطن في انكجان على ما أورده ابن خلدون "ودخلوا البلد كتامة منتصف ربيع سنة 288هـ، فنزل على موسى بن حريث ببلدة أنكجان..."[3]، ثم ما لبث أن اتسع نطاقها إلى سطيف ونقاوس، وأوراس وجيجل وإسكدة والمسيلة، أما هذه المواضع فيما يستفاد منها من روايات اليعقوبي والبكري تدل على أنها كانت في الغالب مجال انتشار واسع، وربما كان في التأسيس أو هي مواضع دانت بالمذهب الشيعي، "ومدينة سطيف .... بها قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل ابن الاغلب ... قد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت"، "ومدينة نقاوس كثيرة العمارة وحواليها البربر من مكنانة...ومدينة أحة على الجبل... ومدينة أربة وهي آخر مدن مما يلي الزاب..."،"والسواحل، البحر تقرب من هذه المدينة ولها مرسى يقال له جيجل، و مرسى ملر ومرسى قال له مرسى دنهاجة وهذا كله عامر ...."[4].

وقد بيّن موسى لقبال في بعض دراساته المتعلّقة بقبيلة كتامة أن الداعية الشيعي إنما اختارها لما تميزت به من مضارب متباعدة، بقبيلة كتامة لم تكن تدين لابن الأغلب بولاء تام، (وعرف الداعي أن كلمة كتامة اسم عام تنطوي تحته قبائل وبطون وأفخاذ وعشائر كثيرة، لكن مضاربها متقاربة، والعلاقة بينها مثل أية علاقة ... وكانت العلاقة بينهم علاقة شكلية لا تتجاوز الدعاء على المنبر وكتابة أسمائهم على السكة)[5].

(1) البكري، المصدر السابق. ج 2 ص 244

(2) نفسه. ج 2، ص 245.

(3) ابن خلدون. ج 4، ص 142

(4) اليعقوبي. المصدر السابق، ص-ص 190 - 191.

(5) موسى لقبال: "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس هجري / 11 ميلادي"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، صفحة 236.

وكما أن مدينة مقرة وحصونها كانت للمذهب الشيعي، وإذ يذكر اليعقوبي في كتابه وصفها وكيف أنهم خالفوا ابن الأغلب (ومدينة يُقال لها مقرة، لها حصون كثيرة، والمدينة العظمى مقرة...، ومنها إلى حصون تُسمى برحلس وطلْمة وحبرور...، بها قوم يُقال لهم بنو الصمصامة، خالفوا ابن الأغلب...)[1]

وكما أن البكري يذكر أن مدينة المسيلة أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله، (إلى مدينة المسيرة، وهي: مدينة جليلة على نهر يُسمى بنهر سهر، أسسها إسماعيل بن عبيد الله أبو القاسم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك...، واستعمله عليها...، وبقي ابنه جعفر فيها، وصار أميرا على الزاب كله إلى أن خرج عليها سنة ستين وثلاثمائة)[2].

2- إقليم الزاب:

ويُستفاد من دراسة اليعقوبي أن الزاب كان من جملة المواضع التي كانت لحكم الإباضية في طور من أطوارهم، وكان بها ينزل الولاة، (ومن القيروان إلى بلاد الزاب عشر مراحل، ومدينة الزاب العظمى طبنة، وهي التي ينزلها الولاة وبها أخلاط)[3]. غير بعض القبائل التي كانت تسكن الزاب وتدين بالمذهب الإباضي - الذي سنذكر جغرافيته ضمن عنوان الصحراء -، ثم ما لبث أن صار في قبضة الإسماعيلية بعد امتدادهم على نواحي المغرب. (الزاب بلد واسع، فمنه مدينة قديمة يُقال لها باغاية، بها قبائل من الجند وعجم من أهل خراسان...، وقوم من البربر من هوارة بجبل جليل يُقال له: أوراس، يقع عليه الثلج)، ومدينة يُقال لها تيجس من عمل باغاية... ومدينة عظيمة جليلة يُقال لها ميلة، عامرة محصّنة...)[4]، وهذه مناطق الزاب كانت للشيعة الإسماعيلية، حددها اليعقوبي، وهذا الذي ذكره أيضا موسى لقبال في دراسته أن ميلة التي أعظم مدن كتامة، ومنطقة الزاب [5]، وأيضا مدينة المسيلة كانت أيضا تحت مناطق الشيعة (جعفر... (جعفر... صار أميرا على الزاب كله إلى أن خرج عليها سنة ستين وثلاثمائة)[6].

(1) اليعقوبي: المصدر السابق، صفحة 191.

(2) البكري: المصدر السابق، ج 2، ص 239.

(3) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 190.

(4) نفسه، ص 190.

(5) موسى لقبال، المرجع السابق، ص150

(6) البكري: المصدر السابق، ج 2، ص 239.

3- إقليم الصحراء:

كان دخول الإباضية في أوائل القرن الثاني هجري، مع سلامة بن سعد، إذ أنه وجد المجال الجغرافي للمغرب ديارًا خالية من الدعاة غير المذهب الصفري، إذ كانت بدايتهم معًا، كما يذكر أبو زكريا في "سير الأئمة"، فأول من حمل الدعوة إلى المغرب هو سلامة بن سعد، وعكرمة بن عبد الله (الذي يُعزى إليه نشر المذهب الصفري) في أوائل القرن الثاني الهجري. ويبدو أن نشاط سلامة وجد أرضًا بكرًا، فنالت دعوته نجاحًا ملحوظًا، وفي غضون سنوات حظي بجموع غفيرة، أتباع كثيرة، (حيث أنه لم يكد يمضي على دخوله المغرب عشرون سنة حتى تكونت جماعة معتبرة من الإباضيين في طرابلس)[1]، إلا أنه فيما بعد توجهت الأنظار أكثر نحو المغرب الأوسط، وكثر انتشار الإباضية فيه، ودخلت قبائل المغرب من هوارة ونفوسة ولماية وزناتة وسدراتة وزواغة ولواثة، كما ذكرها البكري: (لواطة وهوارة، وبغربيها زواغة، بجوفيها مطماطة وزناتة ومكناسة). وأيضا (هوارة ومكناسة إباضية)[2].

واتّخذ الإباضية من الحصون معاقل يتحصّنون بها طلبًا للعزلة والنجاة من سطوة الخلافة بالمشرق، واتقاءً للفتنة العصبية البربرية في أول أمرهم، (وقد ذُكر أن شرقيها حصنًا لبرقاجانة، وهو تيهرت القديمة)[3]، وقد امتد ظلهم في الآفاق مع قيام دولتهم، وكانت تيهرت دار ملكهم ومقر دعوتهم، وابتغوا بها زرع المعاش، ومد سلطانهم على منابت الذهب ومسالك القوافل النازلة من بلاد السودان الغربي رغبة في الاستبداد بخيراتها، وهذا ما يبرزه اليعقوبي (إلى تاهرت، المدينة العظمى مدينة جليلة... تغلب عليها قوم من الفُرس يُقال لهم بنو مُحَمَّد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، تولّى إفريقية وسار ولده إلى تاهرت، فصاروا إباضية ورأس إباضية، والحصن الذي على ساحل البحر الأحمر ترسو به مراكب تاهرت، يُقال له مرسى فروخ)[4].

وأوضح أيضا أن الحصن المسمى مرسى فروخ كان من جملة نفوذهم، يلجأون إليه، ويرسون فيه مراكبهم، فصار لهم موئلاً بحريًا، إضافة إلى مجالات جغرافية أخرى مثل قرية مسكيانة، وهي على نهر، "وقد ذكرها البكري في الشرق[5]، وقد انحدر الإباضيون إلى نواحي الصحراء بعد اشتداد شوكة الشيعة الإسماعيلية في أرجاء المغرب، وهذا ما يُستشف من روايات الدرجيني والوسياني، وتؤكد أيضا أن الصحراء كانت يومئذ من المواطن التي دانت لهم، فاتّخذوها موئلًا ومأمنًا بعد

(1) يحي بن أبي بكر أبي زكريا (474 هـ)، سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا، تح: إسماعيل العربي، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1402هـ / 1982 م، ص ص 15 - 16.

(2) البكري: المصدر السابق، ج 2، ص-ص 249-255.

(3) نفسه، ج2، ص249.

(4) اليعقوبي، المصدر السابق، ص 192.

(5) البكري، المصدر السابق، ج2، ص 227.

أن اشتدّ الصراع بين المذاهب. (وذُكر أن في ورجلان سبعين مستجاب الدعاء، أربعين في تمميوين، وثلاثين في سائر ورجلان)[1]. ما هو إلا دلالة على مقام معروف لعلماء إباضية بتهرت بورجلان، إذ كانت لهم فيها مجالس ومنازل، وأشاعوا علمهم بعد أن اضطرب أمرهم في الحواضر، (وكان كذلك يفعلون في ذلك الزمان، فيها علمهم، فاجتمعوا في المنبر الذي قُدّام ورجلان)[2]. وقد نبّه الشريف الإدريسي في كلامه على تواجد الإباضية بورجلان، فدلّ على رسوخ أمرهم بها، واستمرار سُكناهم في تلك الجهة بعد تفرّق الجماعة.

(إلى ورقلان اثنتا عشر مرحلة كبار، وهي مدينة فيها قبائل مياسير، وتُجّار أغنياء... في بلادهم، باسم بلدهم، وهو وهبية إباضية نكار خوارج)[3].

وكما استقر أمرهم بورجلان، فقد انتشرت جماعتهم في نواحي وادي أريغ وسوف وميزاب، وفي جبال أوراس، حيث عمروا أيضا تلك النواحي، وشيدوا بها مواطن العلم والدعوة. (فلما كان، اجتمعوا عليه، فقال لهم: إن كان الأمر كما يقول هذا الحساب، فإنما حصل من بني مغراوة في طرابلس مصيره إلى أريغ)[4]. وهذا ما يدل إلا على الترابط الوثيق بين مراكز الدعوة الإباضية بعد السقوط، وإيمانهم بمركز السلطة في صحراء المغرب الأوسط، رغم تفرق الديار. فقد كان انتشار علماء الإباضية، وكثرة أهلتهم في تلك النواحي أمرًا مشهودًا، كما يُستفاد من كتاب الدرجيني، إذ أشار في سيره إلى مراكز الدعوة الكبرى التي عنيت بحل المسائل الفقهية، وذلك من خلال تراجم تُظهر مدى عمق الجذور العلمية للإباضية في تلك الديار. فقد ذكر في مستهل الكتاب: (وكانت النواحي الآهلة بهم الزاب، وأريغ، وسوف، وجبال الأوراس، وميزاب تعجّ بهم عَجّا، فكانوا إلى ذلك على اتصال وثيق بإخوانهم إباضية بجبل نفوسة وطرابلس، وكان بينهم تجاوب في الآراء العلمية...)[5]. ولم يكن هذا الموضع وحيدًا في سياق الدرجيني، بل وردت إشارات أُخر في مواضع متفرقة متفرقة من "السير"، تؤكد حضور الإباضية في المواطن ذاتها. جدير بالذكر، (وذكر أبو عمرو عن أبي عبد الله بن مُحَمَّد، أنه

(1) سليمان بن عبد السلام بن حسان بن الربيع الوسياني (القرن 6 هـ / 12 م)، تحقيق: عمر بن لقمان حمو، سليمان بوعصبابة، ط 1، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عُمان، 1430 هـ / 2009 م، ج 1، ص 610.

(2) الوسياني، المصدر السابق، ج 1، ص 883.

(3) مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني أبي عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي (ت 561 هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح كثيرون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م، ج1، ص296.

(4) الوسياني، المصدر السابق، ج 1، ص 903.

(5) عبد الرحمن بَكْلي بن عمر، أحمد بن سعيد، أبو العباس الدرجيني، (ت: 670 هـ)، طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة قسنطينة – الجزائر، ج 1، ص ص (أ – ب).

تلقى جماعة عزابة "بابرعت"، وقد قدموا من...، فقال: إنما ينبغي أن نلقاكم في "سوف"، وإلا ففي "وغلانه"، ولكن الزمان غير مساعد)[1].

وتتوالى الإشارات عند الدرجيني إلى تلك المواطن، وهذا ما يُظهر انتظام الحركة العلمية، واستقرار المجال الجغرافي للدعوة في هذا الحيّز الصحراوي من المغرب. (كان تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف، وأريغ، ورجلان، ومزاب...)[2] على أن هذا الاستقرار الظاهر في الحيّز الصحراوي لم يكن ليخلوا من حركات الانبعاث السياسي، ولو في صورة أفراد قلائل، كان في مقدمتهم أبو زيد مخلد بن كيداد الزناتي، وقد ارتبط اسمه بجملة من المواضع الجغرافية التي اتخذها مقرًا لحركته، فكان استقراره بين باغاية جبل الأوراس التماسًا للمناعة، واتقاءً لبطش الدعوة الشيعية، كما تشير إليه روايات كل من اليعقوبي والبكري. (ومنها مدينة باغاية، وهي مدينة جليلة أولية...، وعلى مقربة منها جبل أوراس، وهو المتصل بالسوس، وبهذا الجبل أقام أبو زيد مخلد بن كيداد الزناتي)[3]. وأشار إلى هذا أيضا ابن خلدون، فذكر: (وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه، فضربوا على بسطيها، واستباح بعض القصور بها سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، ثم زحف بهم إلى باغاية)[4]. وتحدث ابن خلدون عن سير مخلد بن كيداد، وتحركاته وجماعته في ذلك الوقت.

وإذا كان سقوط الدولة الرستمية قد طوى صفحة الدولة وسلطانها، فإن استحضار ما كان من جماعات مذهبية تجاورها، بل وانفصلت عنها وهي على قيد القوة، يُعين على فهم طبيعة التداخل العقدي، وعلى سبيل المثال: جماعات الشراة، والواصلية، والكرامية، فقد انشقت عن الإباضية (دولة الرستمية أواخر أيامها كما يذكر اليعقوبي، جماعات دينية مثل ابن مسالة واتخذ من بلدة "يلل" معقلا له مركزا جديدا لدعوته،ومن تاهرت وما يحوز عمل ابن الأفلح الرستمي إلى مملكة رجل من هوارة يقال ابن مسالة الإباضي، إلا أنه مخالف لابن الأفلح يحاربه، ومدينة يسكنها يلل تقرب البحر المالح)[5].

وما يلاحظ في هذا السياق أن تلك الانشقاقات الإباضية لم تكن بمعزل عن محيط مذهبي أوسع، إذ كانت إلى جوار المذهب الإباضي جماعات من الشراة، والكرامية والواصلية اتخذت لنفسها مواضع دعوة خاصة. تباينت في مدى ارتباطها بالسلطة المركزية أو افتراقها، غير أنه هذه الفرق و إن وجدت في المشهد لم يكن لها كيان سياسي واضح المعالم، ولا سلطان يمكن الركون إليه، وذلك لما كان من الاضطراب السياسي في المغرب الأوسط، وكثر الإتجاهات العقدية

(1) الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص480.

(2) نفسه، ج2، ص480.

(3) البكري، المصدر السابق، ج2، ص227.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 19

(5) اليعقوبي، المصدر السابق، ص195.

المتنافسة. والملاحظ من النصوص التاريخية وما يستشف منها أنها لربما كانت مقتصرة على عائلات ترحلت من المشرق فرارا بأنفسها تلتمس النجاة لمذهبها. وقد ورد ذكر بعض هذه الجماعات في كتاب "البلدان" لليعقوبي و وورد بعضها في "المسالك والممالك" للبكري، فقد ذكر اليعقوبي موضع فرقة الكرامية في حصن ابن كرام (ومنها إلى حصن ابن كرام ولبس أهله بشراة لكنهم جماعية بلدهم بلد زرع)[1]. وكانت مضارب شراة في بني برزال فخذ من بني دمر من زنانه إلى حد قول اليعقوبي (وإذا خرج الخارج من عمل الزاب مغربا صار إلى قوم يقال لهم بنو برزال، وهم فخذ من زناتة، وهم شُراة كلهم...، ثم التحقوا بمن يُقال لهم بنو دمر من زناتة في بلدٍ واسع، وهم كلهم شُراة، عليهم رئيس منهم يقال له مصادف بن جرتيل في بلد زَرْعٍ ومواشٍ)[2]

أما مواضع الواصليّة، فقد كانت قريبة من الإباضية حسب ما ذكره البكري، (وكان مجمع الواصليّة قريبًا من تيهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب)[3].

واليعقوبي (قوم يُقال لهم بنو مطماطة، وهم بطون كثيرة، ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يُقال لهم أيزرج، بها بعضهم)[4]، وهذه المدينة تابعة لمملكة بني مُحَمَّد بن سليمان عبد الله بن الحسن... على مذهب الاعتزالي.

والواقع أن الدولة الرستمية (الإباضية)، منذ التأسيس وحتى السقوط، كانت تتأرجح بين التمدد والتقلص. أما ما حدث بعد السقوط فكان نتيجة للاضطراب السياسي والصراع المذهبي، وكذلك الاستبداد الشيعي، الذي جعل جموع أتباع المذهب الإباضي في تشتت. وتحدث عن هذا في دراساته للدولة الرستمية يحاز، بقوله: (إن الدولة الرستمية عرفت حدودًا متموجة، تمتد أحيانًا وتتقلص أحيانًا أخرى، وهذا أمر مفهوم في مثل العصر الذي قامت فيه هذه الدولة، والبقعة التي قامت عليها)[5].

(1) اليعقوبي، المصدر السابق، ص 191.

(2) نفسه، ص191.

(3) البكري، المصدر السابق، ج2، ص 249.

(4) اليعقوبي، المصدر السابق، ص 196.

(5) إبراهيم يحاز، الدولة الرستمية (160- 260هـ / 777 - 909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، 1414هـ / 1993م، ص 108.

4 – عقائد الجماعات الدينية:

وفي معرض الحديث عن العقائد التي استقرت ببلاد المغرب الإسلامي في القرن الثاني هجري نستسهل القول – في هذا الجزء من الفصل – بمذهب مثلته الإمارة الإدريسية والسليمانية، والذي صنفه الشهرستاني ضمن فرق الشيعة الذين شايعوا عليا – ﷺ – على وجه الخصوص (الشيعة هم الذين بايعوا عليا على الخصوص...، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبرك قولا وعقدا إلا في حال التقية... ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ولهم في ذلك تعدية الإمام كلام وخلاف كثيرة)[1]. وقد قسم تلك الفرق إلى خمس ونأتي بما هو محل دراستنا: الزيدية...،الإسماعيلية، .... وغيرهم. وهؤلاء دون سائر الفرق

هم الذين استطاعوا أن يؤسسوا كيانات سياسية بالمغرب.

4 –1– الزيدية والإسماعيلية:

أ– الزيدية:

ويذكر البغدادي والشهرستاني أن هؤلاء أصحاب زيد بن علي* وهم الذين حصروا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنهما (ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ﷺ. ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم)

– جواز الإمامة في كل فاطمي عالم شجاع سخي يخرج بالدعوة و إلا أنهم جور و الإمامة في كل فاطمي عالم شجاع ... أن يكون إماما واجب الطاعة سوءا كان من أولاد الحسين أو الحسن)

– جواز خروج إمامين في قطرين إذا اجتمعت فيهما شروط الإمامة (وجوزوا خروج الإمامين في قطرين)[2].

ويذكر أن زيد بن علي تتلمذ على يد واصل بن عطاء وأخذ الاعتزال (فتتلمذ على يد واصل...، واقتبس منه الاعتزال... أصحابه كلهم معتزلة).

---

(1) عبد الكريم، أبي الفتح بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت 548هـ)، المحلل والنحل، تح: مُحَمَّد عبد العزير مُحَمَّد الوكيل مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، 14 شارع جواد حسني، القاهرة، 1387هـ / 1968م، ج1، ص ص 147 ، 146

* زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسين الهاشمي العلوي المدني أخوا أبي جعفر الباقر، وعبد الله وعمر وعلي، وحسين، وأمه أم ولد، روى عن أبيه زين العابدين، وأخيه الباقر ...، قال عيسى بن يونس: جاء الرافضة زيدا فقالوا: تبرأ من أبي بكر و عمر حتى ننصرك. قال: بل أتولاهما. قالوا: نرفضك. فمن ثم قيل لهم الرافضة. وأما الزيدية، فقالوا بقوله، وحاربوا معه، قتل يوم 2 صفر 122 هـ. انظر شمس الدين، مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1417هـ / 1996م، ج5، ص ص 389- 390.

(2) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 154.

– جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل قياسا على خلافة أبي بكر مع وجود علي (وكان مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، فقال: كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها)[1]. وقد كان تبريرهم لهذا هو تهدئة للفتنة (من تسكين للفتن)[2].

رفض زيد بن علي التبرؤ من الشيخين "أبي بكر وعمر" وهو ما جعل الشيعة في الكوفة يرفضونه (فلما سمعت الشيعة هذه المقالة منه، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه. فسميت الرافضة). وجرت بينه وبين أخيه الباقر مناظرات بسبب أنه تتلمذ على المعتزلة)[3].

– كان يشترط الخروج في الإمام فلا إمام لمن لم يخرج بالسيف، (ومن حيث أنه كان يشترط الخروج شرطا في كون الإمام إماما حتى قيل له (على مقتضى مذهبك، والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط)[4].

وقال عبد القاهر عن الزيدية أنها:

– بأن أصحاب الكبائر من الأمة يكونون مخلدين في النار،و هم من هذا الوجه كالخوارج الذين أيأسوا شراء المذنبين من رحمه الله تعالى [5].

وقد استمرت الإمامة بعد مقتل زيد في ابنه يحي، ثم مُحَمَّد و إبراهيم. وقتلهم جميعا [6].

ب – الشيعة الإسماعيلية:

قبل الشروع في عرض عقائد الشيعة الإسماعيلية لا بد من الوقوف على كيفية نشأة هذا المبدأ أول أمره، كما حكاه البغدادي في "الفرق بين الفرق"، حيث ذكر أن جماعة من المؤسسين اجتمعوا في سجن والي العراق، كان أبرزهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح*، ومُحَمَّد بن الحسن الملقب بداندان، فأسسوا فيه دعوة الباطنية، ومنها ظهر وانتشر هذا المذهب فيما بعد. وظهرت أوائل حركتهم في نواحي الجبل وتوز، قبل أن ينتقل إلى المغرب ويدعي الانتساب إلى آل

(1) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 154.

(2) نفسه، ج 1 ص 155.

(3) نفسه، ج 1، ص 156.

(4) نفسه. ج 1، ص 156

(5) عبد القاهر أبي منصور بن طاهر بن مُحَمَّد البغدادي (ت:429هـ)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وأراء كبار أعلامها، تح: مُحَمَّد عثمان الخشن، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ص 44.

(6) الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 156.

* ميمون بن ديصان بن سعيد القداح، (100؟– نحو 17هـ – 718 نحو 786) في نسبه وسيرته اضطراب. قيل اسم أبيه ديصان، أو غيلان، وفي الإسماعيلية الباطنية من ينسبه إلى سلمان الفارسي. ولد بمكة وانتقل إلى الأهواز. واتصل بمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق. يقال أنه أدرك مُحَمَّد بن إسماعيل بن حفص وأدبه ولقنه مذهب الباطنية وتوجه به طبرستان، فلسطين... وهو الذي قيل الخلفاء الإسماعيلية بالمغرب من نسله. انظر: البغدادي، المصدر السابق، ص 247.

البيت زورا، فانتشرت دعوته في (غلاة الرفض والحلولية منهم ادعى أنه من ولد مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل ذلك الأغبياء منه)[1].

ألقابهم:

الباطنية وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا... ولهم ألقاب كثيرة على لسان قوم:

العراق: الباطنية، القرامطة، والزدكية

وبخراسان: التعليمية. والملحدة.

وهم يقولون نحن الإسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة لهذا الاسم وهذا الشخص[2]، فهم من ساقوا الإمامة إلى جعفر، وزعموا أن الإمام بعده إسماعيل وافترقوا إلى قرشين. فرقة انتظرت عودته رغم اتفاق أصحاب التواريخ على موته في حياة أبيه، وأخرى قالت أن الإمام بعد جعفر هو مُحَمَّد بن إسماعيل الآن جعفر لما نصب ابنه إسماعيل الإمامة ثم مات في حياته دل ذلك على أن القصد كان الإشارة إلى إمامة ابنه مُحَمَّد، وهذا ما مال إليه الإسماعيلية إلى الباطنية)[3].

أشهر عقائدهم وأقوالهم:

عباد النار (ولم يمكنهم إظهار عيادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين ينبغي تجمير المساجد كلها... وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذوا في جوف الكعبة مجمرة ...).

الاعتقاد بوجود إلهين (وذكروا زعماء الباطنية في كتبهم أن الإله خلق النفس فالإله هو الأول، والنفس هو الثاني. وهما مدبرا هذا العالم وسموها الأول والثاني، وهو بعينه قول المجوس[4].

تأويل أصول الدين وأحكام الشريعة: كإباحة نكاح البنات والأخوات وهذا مثل أحكام المجوس، وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات على حد قول البغدادي[5].

– القول بوجود إمام دائم حي "ولن تخلو الارض قط من امام حي قائم ...."

(1) البغدادي، المصدر السابق، ص 247.

(2) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 192

(3) البغدادي، المصدر السابق، ص ص 62 – 63

(4) نفسه، ص 250.

(5) نفسه، ص 250.

– منع العوام من الخوض في المعارف وتقييد الخواص عن مطالعة الكتب الا بإذن وتعليم.

– القول بوجود معلم صادق:

– لا تدرك معرفة الله الا بتعليمه.

– ولا يقبل تعليم غيره وهو المرجع في العقيدة والتفسير.

– قولهم من ما ت ولم يعرف إمام زمانه أو لم تكن له بيعة مات ميتة جاهلية[1]. تكلم البغدادي في مقامه على دخول الباطنية إلى بلاد المغرب فذكر ما كان من أمرهم في تلك الديار، و ما آل إليه أمرهم من التمكين والظهور فقال "ثم إن الباطنية خرج منهم عبيد الله ابن الحسين بناحية القيروان، وخدع القوم من كتامة وقوم من المصامدة، وشرذمة من أختام بربر بجبل.... أظهرها لهم كرؤية الخيالات بالليل....، وظن الأغمار أنها معجزة له فاتبعوه ....فاستولى بهم على المغرب[2].

4–2– الإباضية:

تأسس المذهب الإباضي على يد عبد الله بن أباض. كما أورده كل من البغدادي و الشهرستاني، وقد ذكرا أن هذه الفرقة قد افترقت إلى عدة فرق لكنها تجتمع على القول بـ:

– تكفير أهل هذه الأمة من مخالفيهم وقولهم "بأن كفار هذه – يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الامة – براء من الشرك والايمان، وأنهم ليسوا مؤمنين و لا مشركين ولكنهم كفار.

– جواز شهادتهم و تحريم دمائهم في السر ثم إحلالها في العلانية "أجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السر واستحلوها في العلانية"[3].

إحلال أموالهم ونكاح منهم "وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم، و قالوا باستغلال بعض أموالهم ...."

– زعمهم أنهم محاربون الله ورسوله ولا يدينون دين الحق "وزعموا في ذلك أنهم محاربون لله ورسوله ولا يدينون دين الحق".

– زعمهم أن دور مخالفيهم من أمر مكة دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي[4].

(1) الشهرستاني. المصدر السابق، ج 1، ص 197-195.

(2) البغدادي، المصدر السابق، ص 252.

(3) نفسه، ص95.

(4) نفسه، ص 97.

– قولهم في النفاق "واختلفوا في النفاق على ثلاث أقوال فقال فريق منهم براء من الشرك والايمان جميعا، واحتجوا على ذلك بقول الله "مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا".[1]

و فرقة منهم قالت "لا نزيل اسم النفاق عن موضعه، ولا نسمي بالنفاق غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين، ومن قال منهم "بأن المنافق ليس بمشرك رغم أن المنافقين على عهد الرسول ﷺ كانوا موحدين كانوا أصحاب كبائر فكفروا وإن لم يدخلوا في حد الشرك"[2]

– قالوا إن مرتكبي الكبائر – أنهم موحدون لا مؤمنون .

– قولهم: أن الاستطاعة ومن الأعراض، وهي قبل الفعل بها يحصل الفعل وأفعال العباد مخلوقة الله تعالى: إحداثا وإبداعا، ومكتسبة للعبد حقيقة.

– لا يسمون إمامهم أمير المؤمنين، ولا أنفسهم مهاجرين.

– قولهم بـ: العالم يفنى كله إذا فنى أهل التكليف.

– مرتكبي الكبيرة قالوا عنه كفر النعمة لا كفر الله.

– أجازوا تعذيب أطفال المشركين في سبيل الانتقام، وأجازوا ان يدخلوا الجنة تفضلا[3].

– قولهم كل شيء أمر به الله تعالى فهو عام ليس بخاص، وقد أمر به المؤمن والكافر وليس القرآن خصوص.

– يجوز أن يخلق الله تعالى رسولا بلا دليل يكلف العباد بما أوحى إليه ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلا ويظهر معجزة[4].

4–3– عقائد الشراة (المحكمة الأولى) هؤلاء الفرقة:

يقال عنهم محكمة الأولى وهم الذين خرجوا على علي أمير المؤمنين ﷺ حيث جرى امر الحكمين، فإنهم اجتمعوا بحروراء من نواحي الكوفة، كان في مقدمتهم عبد الله بن الكواء، وعتاب بن الأعور، وعبد الله بن وهب الراسبي، وعروة

(1) سورة النساء : آية 143.

(2) البغدادي، المصدر السابق،ص98.

(3) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 135

(4) نفسه، ج1، ص 135.

بن جرير، ويزيد بن أبي عاصم المحاربي ... وذي الثدية، كانوا يومئذ اثني عشر ألف من اهل الصيام والصلاة، وعنى الشهرستاني يوم النهروان[1].

ومن عقائدهم:

– تكفير الصحابة (عثمان وعلي. وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضي بالتحكيم، وإكفار كل ذي ذنب ومعصية.[2] وقال الشهرستاني أن خروجهم كان في أمرين :

بدعتهم في الإمامة:

– إذ جوزوا أن تكون الامامة في غير قريش وكل من نصبوه كان على العدل واجتناب الجور كن إمام، ونصب القتال معه. وإن غير السيرة عزل أو قتل.

– أشد الناس بالقول بالقياس.

– قولهم بجواز أن لا يكون في العالم إمام أصلا، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدا أوحرا، او نبطيا، أو قرشيا[3].

والثانية:

تكذيب علي وتخطيئه في قضية الحكم، "لأنهم قالوا: أخطأ علي في التحكيم إذ حكم الرجال ولا حكم إلا لله، وقد كذبوا على علي من وجهين:

– أحدهما في التحكيم: أنه حكم الرجال وليس ذلك صدق لأنهم هم الذين حملوه على التحكيم.

– والثانية أن تحكيم الرجال جائز فإن القوم هم الحاكمون في المسألة وهم رجال ولهذا قال على ﷺ "كلمة حق أريد بها باطل"، وتخطوا عن هذه التخطئة إلى التكفير ولعنوا عليا، فيما قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين...."[4].

(1) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 115-116

(2) البغدادي، المصدر السابق، ص 77.

(3) الشهرستاني، المصدر السابق، ج 1، ص 116 .

(4) نفسه، ج 1، ص 117 .

4-4- عقائد الواصلية:

اصحاب واصل بن عطاء العزال* الألثغ كان تلميذا للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار، وبالمغرب منهم القليل في نطاق حكم إدريس بن عبد الله الحسنيالذي خرج أيام جعفر[1]، والواصلية اعتزالهم على أربعة قواعد:

القاعدة الأولى:نفي صفات الله من القدرة والعلم والإرادة والحياة.

"وكانت هذه المقالة في بدئها غير نضيمة، وكان واصل .. يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين أزليين. قال ومن أثبت معنى صفة قديمة فقد أثبت إلهين .

القاعدة الثانية: القول بالقدر:

وهذا مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي "فقال عنها أن الله تعالى .... حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم، ولا يجوز أن يريد من العياد خلاف ما يأمر و يحتم عليهم شيئا ثم يجازيهم عليه، فالعبد هو فاعل الخير والشر .... وهو مجازى على فعله"[2].

القاعدة الثالثة: القول بمنزلة بين منزلتين.

"زعم أن الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر. وجعل الفسق منزلة بين منزلتين الكفر والايمان"[3].

قولهم في صاحب الكبيرة في النار، "ثم إن واصلا وعمرو وافقا الخوارج في تأبيد عقاب صاحب الكبيرة في النار مع قولهما بأنه موحد وليس بمشرك ولا كافر"[4].

- القول يفسق أحد الفريقين من أصحاب الجمل:

-زعم الخوارج: أن طلحة والزبير وعائشة ﷺ وسائر أصحاب الجمل كفرهم بقتال علي. على حق في قتال أصحاب الجمل وقتال أصحاب معاوية بصفين إلى وقت التحكيم، نفر كفرا بالتحكيم.

---

* واصل بن عطاء: البليغ الأفوه أبو حذيفة المخزومي، مولاهم البصري الغزال. وقيل ولاؤه لبني ضبة. ولد سنة 80 هـ بالمدينة، وكان يلتغ بالراء غينا، وهو وعمروبن عبيد رأسا الاعتزال. طرده الحسن عن مجلسه لما قال الفاسق لا مؤمن ولا كافر، واعتزل الحسن، فسموا المعتزلة، مات سنة 131هـ، راجع الذهبي شمس الدين، سير أعلامالنبلاء، ج 5 ص-ص 465 -464.

(1) الشهرستاني - المصدر السابق. ج 1، ص 46

(2) نفسه، ج1، ص48

(3) البغدادي المصدر السابق، ص 108

(4) نفسه، ص 108.

: قولهم بصحة اسلام أصحاب الجمل. وعلي .

– زعم أهل السنة قولهم بصحة إسلام أهل الجمل وعلي، حيث علي على حق، وأصحاب الجمل عصاة ومخطئين وهذا لا يكفر ولا يفسقهم ولا يسقط شهادتهم. هذا زعم أهل السنة الخوارج.

أما واصل قال: رغم أن فرقة من الفريقين فسقة لا بأعيانهم وأنه لا يعرف للفسقة منهما، وأجازوا ان يكون الفسقة من الفريقين : كالحسن والحسين وابن العباس، وعمار بن ياسر وأبو أيوب الانصاري، عليا وأتباعه وسائر من كان مع علي يوم الجمل، وأجازوا كون من الفريقين، عائشة، وطلحة والزبير وسائر أصحاب الجمل. ثم قال في تحقيق شكه في الفريقين "لو شهد علي وطلحة أو علي والزبير أو رجل من أصحاب علي ورجل من أصحاب الحمل عنديعلى ناقة بغل لم أحكم بشهادتهما لعلمي بأن أحدهما فاسق لا بعينه. كما لا أحكم بشهادة المتلاعنين، ولو شهد رجل من أحد الفريقين أيهما كان قبلت شهادتهما"[1].

4–5– الكرامية " أهم عقائدها "

الكرامية ثلاث فرق، حقائقية، طرائفية، اسحاقية، لا يكفر بعضها بعض وهم من أصحاب مُحَمَّد بن كرام وزعيمهم، تبعه أوغاد ودهماء "وتبعه على بدعته من أهل السواد نيسابور شرذمة من أكرة القرى..."[2].

– دعا إلى تجسيم الإله. وقال إنه جسم له حد ونهاية من جهة العرش. "إن ابن كرام دعا أتباعه إلى تجسيد معبوده، وزعم أنه جسم له حد ونهابة من تحته والجهة منها يلاقي عرشه".

– وصف الله بأنه جوهر كما قالت النصارى واتباعه يخفون قولهم بالجوهر عند العامة، لكنهم يصرحون بلفظ الجسم.

– زعم أن الله مماس للعرش وأن العرش مكان له وأبدلوا لفظ المماس بلفظ الملاقاة، خشية الشناعة.

– اختلفوا في معنى الاستواء فمنهم من قال إن كل العرش مكان له، ومنهم من قال أنه لا يزيد على العرش بل عرضه كالعرش.

– قالوا أن الإله محل للحوادث وأن أقواله وإرادته أعراض حادثة فيه.

– زعموا أن كل ما يحدث في العالم مسبوق بحدوث أعراض كثيرة في ذات الإله[3].

(1) البغدادي المصدر السابق، ص 109

(2) نفسه، ص 189.

(3) نفسه، ص 190.

الفصل الثاني:

الجماعات الدينية والمشروع السياسي

1- مدلولات النسب في القبائل: قراء في مصطلحي "آل" و "بنو" في السباق الامتداد النسبي

2- القبلية والجماعات الدينية في المغرب الأوسط: من الانتماء إلى الطموح السياسي

تعد القبائل البربرية من أهم الأعمدة التي قامت عليها صروح الدول والمذاهب في بلاد المغرب الأوسط، إذ كانت هذه القبائل بمثابة الراقد البشري والسياسي الذي استندت إليه الجماعات الدينية في نشر دعوتها وتثبيت أركانها، فقد سعت تلك الجماعات إلى استمالة هذه القوى القبلية لكسب منعتها وشوكتها، فكان الامتداد التاريخي والعصبي لتلك القبائل أثر بيّن في توسيع رقعة المذاهب، وتوطينها في المجال المغاربي على نحو جعل من انتمائها عاملا حاسما في رسم معالم المشروع السياسي والعقدي في ذلك العصر.

فما المراد ن بالامتداد في النسبي والتاريخي لهذه القبائل البربرية ضمن قراءة لما ورد في اصطلاح أهل الأخبار من ألفاظ "آل" و "بنو"؟ وكيف تشكلت الخريطة القبلية لهذه الجماعات الدينية على وجه مهّد السبيل للتوجه نحو مشروع سياسي قائم على الانتماء؟

1- مدلولات النسب في القبائل: قراء في مصطلحي "آل" و "بنو" في السباق الامتداد النسبي

الآل: والإِلُّ : القرابة .... قيل : والإِلُّ العَهْدُ والذِّمَّةُ وما يتذمم به، وقال الفرَّاء: الإِلُّ القرابة، ... فالإِلُّ يخرج في جميع ما فسر من العهد والقرابة والجوار .... وقيل الإِلُّ النَّسب والقرابة[1].

ومن هذا جاء في ابن المنظور فإن لفظ "الآل" يدل على الإشارة إلى الأبناء والذرية والأحفاد والنظام السلالي للعائلة أو البيوتات الأسرة، والدلالة أيضا على ناس ينتمون إلى نفس الأصل والنسب.

و "بنو" أو "بني": قال ابن سيده: قالوا إنه جمع بنْوة أو بنوةٍ ، قال الأصمعي: أنشد أعرابي هذا البيت أحسنوا البنا. فقال أي بنا، أحسنوا البنا، أراد بالأول أي بنى: الابن: الولد ... ولامه في الاصل منقلبة عن واو.

عند بعضهم كأنه من هذا. وقال في معتل الياء: الابن والولد...

وقال الزجاج: ابن كان في الأصل بِنْوُ، أو بنُو، الألف ألف وصل في الابن. قال الجوهري: والابن أصله بنو، والذاهب منه واو...[2]

ويوضح من هذا التفصيل "بنى" أن مفهومها يدل على النسب المديد والامتداد في الأسرة ذات العمود الطويل، ويستخدم مصطلح بنو على هذا النسب الممتد والاسرة التي طال نسبها وتكرم محتدها.

(1) مُحَمَّد بن مكرم أبو الفضل بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (630هـ)، لسان العرب، تح. عبد الله علي الكبير وآخرون، 1ط، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة (14010/11/28-26/9/1981)، ص-ص 112-113.

(2) نفسه، ص-ص 362-363.

2- القبلية والجماعات الدينية في المغرب الأوسط: من الانتماء إلى الطموح السياسي

ذكر ابن خلدون أن قبائل البربر ترجع إلى أصلين عظيمين: أحدهما البتر، والآخر البرانس ، وهم يرجعون إلى أب واحد. و قد فصل في ذكر شعوب البترية ومنازلهم . كما أحصى بطون البرانس ومواضعهم.

"وأما شعوب هذا الجبل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان: وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب البرنس البرانس، وهما معا ابنا برنس وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنها لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق ... إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق[1].

وأما شعوب البرانس ففند النسابين فإنهم يجمعهم سبعة أجذام هي: ... وزاد عنها سابق بن سليم وأصحابه:

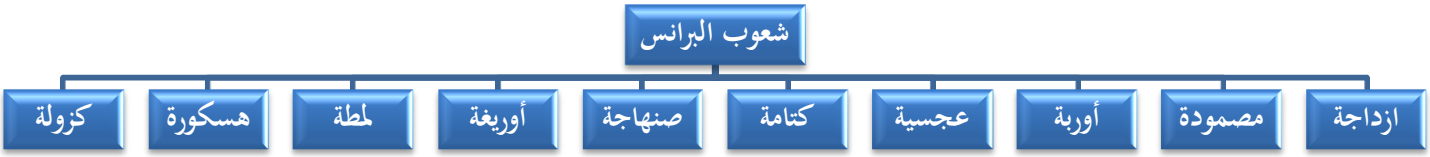

وأما شعوب البتر، وهم شعوب بنو مادغيس الأبتر فيجمعهم أربعة أجذام.

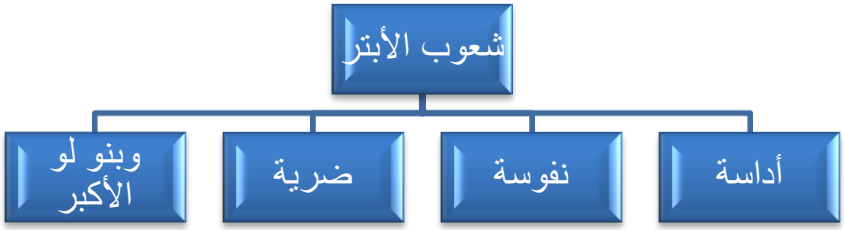

وكانت هذه القبائل البربرية الكبرى تتشعب عنها بطون، وقد انتسبت هذه البطون إلى مذاهب شتى، أودانت لها، ونبتدئ بذكر من دخل في المذهب الخارجي والصفري. ثم من التحق بالمذهب الصفري، ثم يتبع ذلك بذكر ما كان من انتماء القبائل البربرية إلى سائر الجماعات الدينية مما خلا عن الصفرية والإباضية. فنبين ما تفرع عن ذلك من جماعات نهضت إلى مشروع سياسي، وأخرى لم يؤثر عنها قيام بذاته، بل أقامت على ما كان، تحت سلطان سابق، وإن افترقت عنه في المذهب والاعتقاد.

2-1- الإباضية بين الارتكاز القبلي وبناء الكيان السياسي: سعت الإباضية في طلب القبائل البربرية واستمالتها لتثبيت مذهبهم، والتأسيس لمشروعهم السياسي. فكانت من القبائل التي دخلت في دعوتهم: نفوسة وزناتة وهوارة ولواتة.

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6، ص - ص) 118 - 117.

أ/الانتماءات القبلية:

نفوسه: كان مادغيس الأبتر جد البرابرة البثر، وكان ابنه زحبك ومنه تشعبت بطونهم، فكان له من الولد فيما يذكر نسابة البربر أربعة. نفوس ، وأداس وضر ولوا ... نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها[1]، ذكر ابن خلدون أنها أوسع القبائل البربر وفيهم شعوب كثيرة وكانت مواطن جمهورهم في طرابلس وإليها حسب رواية ابن خلدون وفيها جبل يعرف باسمهم.

هوارة: وهوارة يذكر ابن خلدون أنها تنسب إلى ولد هوار بن أوريغ بن برنس، وهي من بطون البرانس، إلا بعض زعوم أنهم من عرب اليمن، وقد انقسموا إلى قولين:

– أنهم من عاملة من قضاعة.

–وأخرى يقولون من المسور بن السكاسك بن وائل بن حمير.

وإذا أرادوا التدقيق نسبوه إلى المسور بن السكاسك.

ثم ينقل ابن خلدون نسبا مركبا يظهر كيف يرجع بعضهم هوارة إلى هذا النسب، فيقولون: هوار بن أوريغ بن جنون بن المثنى بن المسور.

ثم يذكر رواية تفيد بأن: المسور نزل على بني زحبك بن مادغيس الأبتر.

كان لبني زحبك أربعة إخوة: لوا، ضرا، أداس ونفوس، فزوجوه أختهم بصكي العرجاء بنت أزحبك، فأنجبت له المثنى، وهو أبو هوارة، ثم تزوجها رجل آخر هو ابن عافيل بن زعزاع، فولدت له: صنهاجة لمطة وكزولة وهسكورة وهم إخوة من الأم[2].

وولد المثنى بن المسور خبوز وولد بن المثنى ريغ الذي يقال فيه أوريغ بن برنس

و منه عرفت قبائل هوارة[3].

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 149

(2) نفسه، ج6، ص182.

(3) نفسه، ج 6، ص 182.

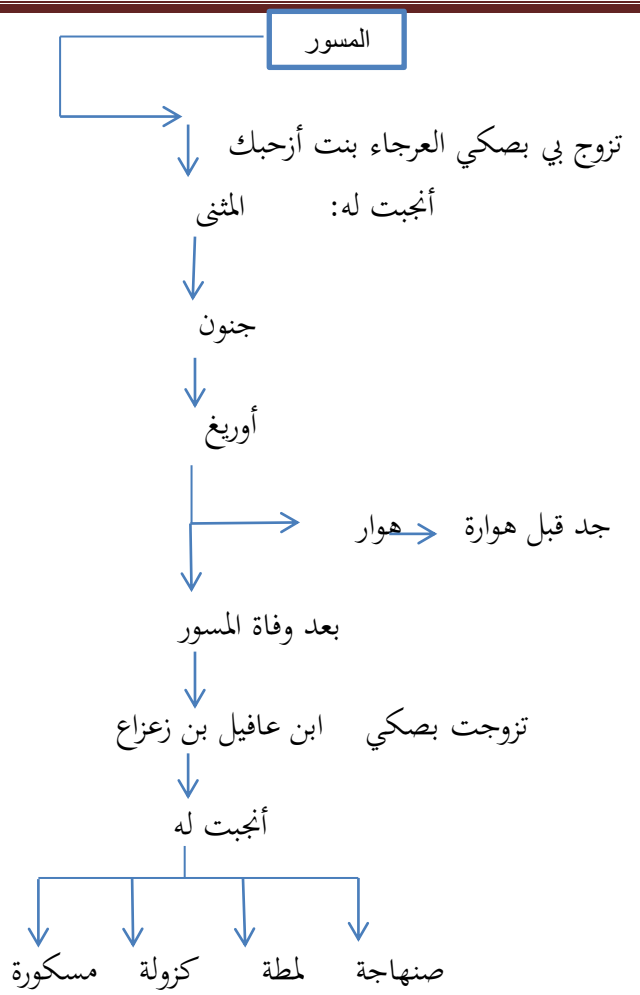

وقد لوحظ تباين في الرواية عند ابن خلدون، فقد ذكر ناقلا عن ابن حزم: أن أولاد بصكي عن زواجها الثاني لا يعرف لهما أب، يقال أن صنهاج ولمط إنما هما ابنا امرأة يقال لها بصكي ولا يعرف لهما أب[1]، ثم أورد ناقلا عن الكلبي أن قبائل صنهاجة وكتامة ليسا أصلا من البربر.

"وقال الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر، وإنما هما من شعوب اليمانية تركها أفريقش ...."[2].

وفي موضع رواية نسب هوارة، قال أن ابن عافيل مين زعزاع هو أباهم.

"ثم تزوجها بعد المسور بن عافيل بن زعزاع أبو صنهاجة ولمطة وكزولة ومسكورة ، كما يأتي فيما بعد أنهم إخوة المثنى لأمه"[3]

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص117.
(2) نفسه، ج6، ص117.
(3) نفسه، ج6، ص182.

لواته:

أورد ابن خلدون أن نسب لواته يعود لوا الأصغر ين لوا الأكبر بن زحبك، قيل أن لوا الاصغر هو نفزا وأن لوا اسم أبيهم، ثم أوضح أن البربر أرادوا التعميم بالجمع، الألف والثاء فصاروا لوات، ولما عربت ألحقوا بها هاء، صارت: لواته[1]

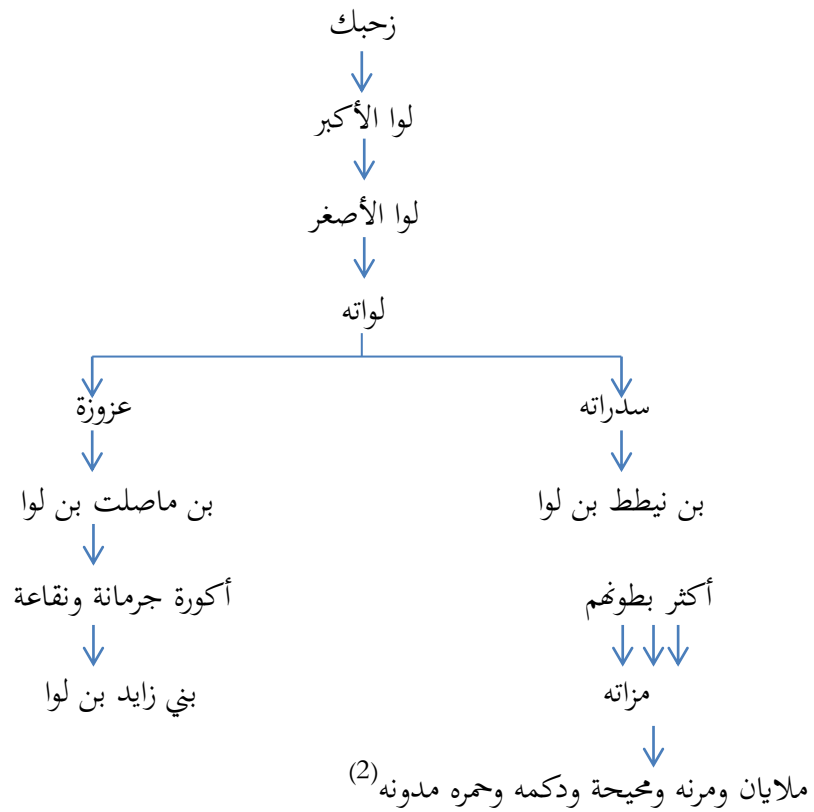

بنو برزال: وهؤلاء يقول عنهم ابن خلدون أنهم كانوا نكارية من فرق الخوارج، ثم اتبعوا الشيعة عندما تم تولية جعفر بن علي حمدون صاحب المسيلة، وهم من ولد ورنيدين بن وانثن بن واردين بن دمر، كما ذكر ابن حرم، وأن إخوتهم بنو يصدرين و بنو صمغان و بنو يطوفت، كانت مواطنهم جبل سالات وما إليها من أعمال المسيلة[3].

بنو دمر: هم من ولد ورسيك ابن الديرت بن جانا، وهؤلاء من زناتة، وشعوبهم كثيرة، ومن بطونهم ورغمة، وهم لهذا العهد مع قومهم في طرابلس، وأيضا من بطونهم ورنيدين بن وانتن بن واردين بن دمر، بني ورتانين وبني عزورول، وبني تغورت[4].

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص152.
(2) نفسه، ج6، ص152.
(3) نفسه، ج7، ص-ص 72-73.
(4) نفسه، ج6، ص71.

وهؤلاء قال عنهم اليعقوبي أنهم شراة "بنو دمر من زناتة في بلد واسع وهم كلهم شراة"[1]، وهؤلاء الشراة كانت لهم مكانة في مجلس الدولة الرستمية.

"فحمد له الشراة ذلك وحمد له أخوه ..."، "وهم علماء الإباضية الذين يقومون برقابة سير أحوال الإمام والإمامة بصفة عامة"[2].

وقد شرح بن عميرة موقف قبيلة دمر وقال أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن قد حاربهم "حتى من دمر الذين سبق للإمام عبد الوهاب أن حاربهم" ليوضح أنهم كانوا معارضين له لحروبه ضد النكار "اتخذوا موقفا معارضا لعبد الوهاب في حروبه من النكار" وأكد هذا الطرح بأن الدولة الرستمية لم تصل مناطقهم[3]، وفي تقديري أن هؤلاء الشراة أنهم ارادوا كيانا سياسيا أو على الأقل التحرر من قبضة السلطة الرستمية، وذلك أن ابن الصغير ذكر وجودهم في المجلس السياسي للدولة، ما دل على رغبة في نيل مكانة سياسية، وبروزهم في فتنة النكار، وكذا فتنة أبي حاتم ما هي إلا محاولات لهم بالظهور السياسي أو السيطرة على الرستميين، غير أنهم ما استطاعوا لسيطرة الحكام الرستميين على دولتهم.

زناته: بين ابن خلدون في نسب زناتة أنهم من ولد شانا وإليه نسيهم، وخلاف بين نسابتهم، فيما أوضح ناقلا عن ابن حزم "أن جانا بن يحي بن صولات بن ورماك بن ضري بن زحبك بن مادغيس بن بربر".

وجاء في رواية أخرى لابن حزم بن يوسف الوراق عن أيوب ابن أبي يريد يعني....: هو جانا بن يحيى بن صولات ين ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن زحبك بن همرحق ابن كراد بن مازيغ بن هراك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام"[4].

وعدّد روايات النسابة ابن خلدون في نسب زنانة

رواية ابن أبي زيد: أنهم من نسل برنس والبتر الذين هم بنو مادغيس الأبتر ليسوا من البربر ومنهم زناتة وغيرهم كما قدمنا، لكنهم إخوة البربر لرجوعهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب.

رواية ابن قتيبة في نسب زناتة إلى جالوت: جانا بن يحي بن ضريس بن جالوت. وجالوت هو ونور بن جربيل بن جديلان وفي رواية أخرى أنه ابن بودنال وأخرى هربال.

ويزعمون أنهم من العمالقة، ثم من الشايعة، ومنهم من يقول من حمير. وهذه الروايات يخطئها ويقول أن ما أورده ابن حرم هو الصحيح[5].

(1) اليعقوبي، المصدر السابق، ص 191.

(2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص63.

(3) مُحَمَّد بن عميرة، المرجع السابق، ص–ص 136-137.

(4) ابن خلدون : المصدر السابق ج7، ص–ص 4-5.

(5) نفسه، ج7، ص5.

وهذه القبائل دخلت في المذهب الإباضي ودانت له، نظرا للأوضاع التي كانت سائدة في المغرب الأوسط، خاصة قبيلة زناتة، رغم كونها من القبائل السباقة إلى الدخول في الإسلام. وذلك حسب دراسة بن عميرة، حيث يذكر ويعدد الأسباب التي جعلت قبيلة زناتة تحديدا تدخل في المذهب الإباضي. ومن بينها ظلم الولاة الأمويين والعباسيين، "مشكلة تقسيم الغنائم ودفع المغاربة إلى الخطر، ومشكلة أخذ البنات الجميلات و..."[1] ، ثم نظرا للمبادئ التي يقرها هذا المذهب من مبدأ المساواة، والسيادة للجميع وأنها تجوز للجميع، "وأما الطريقة التي اتبعوها لنشر آرائهم فهي، الدعوة باسم الدين وحده، وهو أحسن شيء يتفق مع ميزاج البربر،..." إقناعهم أن الخروج على الحاكم حقا وواجبا" وهكذا عادوا مقتنعين بدون شك، بما كان يقوله لهم الدعاة من أن كل الخلفاء... فقد اقتنعوا بسهولة أن مبدأ سيادة الشعب، وهو مبدأ عرفوه منذ القديم،... وأن أي بربري يمكنه أن يتولى الخلافة[2].

وأيضا التشابه في النظام القبلي نظام المشائخ في القبائل البربرية والعربية، "كما يجتمعون في قبائل يحكم كل قبيلة شيخ يطلق اسمه عليها"، وأيضا التشابه في النمط المعيشي متوافق للعرب البداوة والرحل "المعروف عن زناتة أنهم قوم رحالة ينتجعون من مكان إلى مكان غيره ". "يعتمدون على سكن الخيم واتخاذ الإبل"[3].

ب- المشروع السياسي:

كان هدف الخوارج ومنهم الإباضية هو المغرب، وقد استطاعوا كسب تأييد القبائل التي سبق ذكرها، وكانت طرابلس أولى دولتهم هناك، إذ ولوا عليها في بادئ الأمر: عبد الله بن مسعود التجيبي، ثم عبد الجبار بن قيس المرادي، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي "حتى تكونت جماعة معتبرة من الإباضيين في طرابلس. يتزعمها رجل يدعى عبد الله بن مسعود التجيبي".

"وبعده تحولت زعامة المذهب إلى عبد الجبار بن قيس المرادي ومعه الحارث بن تليد الحضرمي"، ومعهم أصبحت طرابلس قاعدة المذهب، ومع الخلاف الذي نشب بينهم وقتالهم وموتهم "على أن خلافا ظهر بينهما فاقتتلا، وقتل كل منهما الآخر في سنة 131هـ"[4].

آلت الأوضاع إلى اسماعيل بن زياد النفوسي، فعظم الشأن فيه وبايعوه إماما، وبدأ الغزو، وكانت مدينة قابس له، "وعقب ذلك انتخب أتباع المذهب رئيسا عليهم اسماعيل بن زياد النفوسي الذي عظم شأنه...، وخلعوا عليه لقب إمام الدفاع"، "في سنة 132هـ استولى على مدينه قابس، ولكنه قتل على مقربة من هذه المدينة في معركة مع جيش

(1) مُحَّد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع زيروت يوسف، الجزائر، 1985، ص63.

(2) نفسه، ص-ص 65-66.

(3) نفسه، ص-ص 21-22.

(4) ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص16.

العباسي"[1]، إلا أنه قتل في المعركة ومعه انهارت الدولة الإباضية الأولى في طرابلس. ومع تمسك سكان المنطقة بالمذهب وظهور أصحاب حملة العلم من البصرة، عاد الازدهار والظهور للمذهب مع ابن السمح، وعبد الرحمن في رستم ، إذ تمكن أبو الخطاب بالاستلاء على طرابلس من جديد "وعقب هذه المرحلة عادت إلى المغرب بعثة **حملة العلم** التي من بينها عبد الرحمن بن رستم وعبد العلا بن السمح المعافري،... وبعد وقت قصير تمكن أبو الخطاب من الاستيلاء على مدينة طرابلس وولايتها"[2].

حسنت سيرة أبو الخطاب وأظهر العدل والتواضع واقتفى عماله أثره في سيرته، حتى جاء اليوم الذي قام فيه إلى الثورة والجهاد.

إذ يروى أن امرأة نادته في القيروان تشكو ظلم الورفجوميين، وقيل أن رجلا قال له ذلك أيضا كما أورده الشماخي وما اتفقت عليه المصادر الإباضية "وأحسن أبو الخطاب السيرة وأظهر العدل والتواضع فسلكت عماله ورعيته مسلكه... أن رجلا من الإباضية دخل القيروان فرأى ناسا من الورفجوميين كابروا امرأة على نفسها والناس ينظرون ولم ينكروا ذلك عليهم ... فأتي أبا الخطاب وقال بعض أصحابنا أن ورفجومة أخرجوا امرأة وهي تصيح يا معشر المسلمين أغيثوني. فلم يغثها أحد، فبلغ الخبر أبا الخطاب،... فقال لها لبيك... فصعد المنبر ورغب في الجهاد وأمر بالاستعداد"[3]، فسار إلى القيروان وأخرج منها ورفجومة*، وترك عبد الرحمن بن رستم واليا عليها سنة 141هـ ، "وأمر أهل بأن يأخذوا أسلحتهم ويخلوا خيبتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق شبه الهاربين المذعورين، فأصبح منزل عسكر بن أبي الخطاب خاليا، فظن أهل القيروان أنهم هربوا منهم ليلا، وقالوا انهزمت البربر، وأخذوا بآثارهم... ومعنى أبو الخطاب ... إلى واد وراء فحص رقاد، وكمن فيه... فأخذ أهل المدينة في طلب أبي الخطاب... فلما لحقوا بهم... وجدوهم معسكرين... فثار أبو الخطاب فهزموهم... فتبعهم... يقتلونهم... حتى دخلوا المدينة... فتحصلت المدينة لأبي الخطاب في سنة إحدى وأربعين ومائة... فلما ولى أبو الخطاب المدنية استعمل عليها عبد الرحمن بن رستم"[4].

وأصبحت طرابلس وإفريقية في قبضة أبي الخطاب، وأقام فيها العدل، وما لبث أن أتى جيش ابن الأشعث، واقتتل مع أبي الخطاب بطرابلس، فانهزم هناك، " وخلصت إفريقية طرابلس لأبي الخطاب وانبسط العدل،... فأرسل معه ابن

(1) ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص16.

(2) نفسه، ص-ص16-17.

(3) أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي (ت 928هـ)، السير، تح: أحمد بن سعود السيابي، ط 2، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1412هـ/1992م، ج 1، ص-ص115-116.

* ورفجومة: بعدما استتب الأمر لعبد الرحمن بن حبيب الفهري في القيروان غدر به أخوه إلياس وقتله طمعا في الحكم، لكن لم تدم له السيطرة، إذ سرعان ما انتقهم ابن القتيل حبيب بن عبد الرحمن، فدخل حربا مع عمه إلياس وقتله. وعندها هرب عبد الوارث، وهو عم حبيب الآخر إلى ورفجومة لاجئين واحتمى بعاصم بن جميل، فكتب إليه حبيب بن عبد الرحمن أن يوجهه إليه فرفض واستغل القتال بينهم وهزم حبيب، ودخل عاصم وأخوه مكرم إلى القيروان . فأساءوا فيها وعثوا ظلما، أما حبيب فهرب نحو جبل الأوراس، انظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب المصدر السابق، ص-ص77-80.

(4) الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص29.

الأشعث... وخرج إلى إفريقية... فلما جاوز حدود مصر أرسل العيون وقد تهيأ له أبو الخطاب... فلما رجعت له العيون قالوا... يتمنون الجهاد بلقائكم،..."[1]، وعندما سمع أبو الخطاب عمد إلى حيلة أنه رجع إلى بغداد، ورأت عيون أبي الخطاب ذلك وأخبروه، فتفرق الناس من حول أبي الخطاب وعادوا إلى منازلهم، ولكن أخبرهم أنهم أصحاب مكر، إلا أنه غلبته اعامة، فأذن لهم بالرجوع[2].

فأخر ابن الأشعث عن تفرق أصحاب أبي الخطاب، فرجع لمحاربته، وخرج له أبو الخطاب وخرج معه من خرج، وقد حارب ابن الأشعث قبل نزول أبي الخطاب وأصحابه للسقي في موضع يقال له تورغا، بقرب مدينة طرابلس حتى هزمهم هناك[3].

أما عبد الرحمن بن رستم، فلما سمع بخبر وفاة أبي الخطاب تفرق عنه عساكره في قابس، فعاد متخفيا إلى القيروان، وكان في طلبه حبيب بن عبد الرحمن، لكنه كان قد فر مع ابنه عبد الوهاب متوجهين إلى أرض المغرب الأوسط، وتحصنوا بجبل أجج، ولحقه شيوخ الإباضية بطرابلس نحو ستين شيخا، "فلما تفرق جنود أبي الخطاب وعبد الحمن بن رستم وتخلص من حبيب، خرج عبد الرحمن وابنه عبد الوهاب... متوجهين إلى أرض المغرب... فلما وصلوا حول واد أجج وهو جبل منيع... قصده عبد الرحمن وتحصن به،... وسمع ابن الأشعث بذلك... حتى وصله فحاصر عبد الرحمن... فأطال مكث تحته، فوخم عسكر ابن الأشعث ووقع فيهم الجدري، ومات منهم خلق كثير... فرجع إلى القيروان وقد يئس من عبد الرحمن"[4].

ومن خبر درجيني الذي يوضح كيف سمع ابن الأشعث بخبر عبد الرحمن فسار في طلبه وحاصره، كما يتضح من هذه الرواية منعة الجبل الذي آوى إليه عبد الرحمن وإصابة عسكر ابن الأشعث بالجدري كانت كذلك في صالح ابن رستم، مما قلل من وطأة ملاحقته العباسيين وابن الأشعث له.

ويلاحظ أن المصادر الإباضية قد سكتت عن أخبار عبد الرحمن بن رستم، إذ لم تذكر له شيئا منذ سنة 144هـ[5].

ثم عادت لتورد خبر التفاف بربر الإباضية حل أبي حاتم الملزوزي الذي جمع الإباضيين في طرابلس، وخلعوا عليه لقب الإمام، فحاصر القيروان سنة حتى قتل.

(1) الشماخي، المصدر السابق، ج1، ص119.
(2) ابن أبي زكريا، المصدر السابق، ص68.
(3) نفسه، ص-ص 69-70.
(4) الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص-ص
(5) ابراهيم بحاز بكر، المرجع السابق، ص82.

"إن أبا حاتم ولي مدينة طرابلس في رجب سنة أربع وخمسين ومائة ومكث فيها أربع سنين، وكانت ولاية دفاع له... فبلغنا أنه خرج إليه جيش من إفريقية، فتلقاه أبو حاتم بعض طريق، فقاتلهم فهزمهم... فلما نزل بالقيروان حاصر أهلها سنة... فألقوا إلى السلم وأذعنوا وأطاعوا... فبلغنا أن أبا حاتم سمع طوالع أقبلوا من المشرق فخرج... فتلقاهم بموضع مغدماس... فلما وصلهم... فهزم الله على يديه العدو... فأنفر إليه أبو حاتم جيشا كبيرا وأمّر عليهم يزيد بن حاتم الأزدي... وسمع أبو حاتم بتوجهه، فجمع أصحابه... حسث نزل موضع حبى... فلما التقى الفريقان اقتتلا فاستنجز القتل في أصحاب أبي حاتم... فاستشهدوا ومن معه من أصحابه"[1].

ثم يذكر ابن عذارى المراكشي خبر عبد الرحمن بن رستم فيشير إلى مشاركته في حصار مدينة طبنة أكبر مدن الزاب، رفقة الصفريين، غير أن الحصار فشل وهزم عبد الرحمن بن رستم في موضع يقال له تهودا[2]، فعاد أدراجه إلى الجبل ثم منه إلى تيهرت حيث بداية دولته هناك[3].

بناء تيهرت وقيام الدولة الرستمية:

بعد التفاف الإباضية حول عبد الرحمن بن رستم، شرعوا في البحث عن عاصمة. فأشارت المصادر الإباضية وكذا التاريخية إلى اختيار مدينة تيهرت، وكيف صالح أهلها عليها، وقد وصف البكري تيهرت فقال: "ومدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفاء وباب المنازل و باب الأندلس وباب المطاحن، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها... وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة منها تيهرت القديمة، وهي حصن لبرقجانة وهي في شرقي الحديثة"[4].

ويتحدث الدرجيني عن كيف اختارها وكيف بنوها فيقول "فلما اتفقوا على عماراتها أمروا مناد ينادي، بسباعها ووحوشها وهوامها أن اخرجوا فإنا أردنا عمارة هذه الأرض فأجلوها ثلاثة أيام.

وبلغنا أنهم رأو وحوشها تحمل أولادها ... فكان ذلك مما رغبهم في عمارتها... أطلقوا نيران فاحترقت أشجارها وبقي أصول ما احترق منها... فعمدوا إليه فأصلحوه لصلاتهم... ثم أخذوا إنشائها وعمارتها، فجعلوها ديارا وقصورا[5].

وأما إصلاحها هذه قد أوردها البكري أن ذلك المكان كان لقوم من مراسة وصنهاجة اتفق معهم ابن رستم على أن يؤدي الخراج من الأسواق بعد ان امتنعوا من بيعه له[1]، وهذا أنهم في تيهرت القديمة إذا بنوا و أتى الليل سقط وتقدم وتقدم

1 الدرجيني، المصدر السابق، ص-ص، 36-40 .
2 ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص89
3 ابراهيم بحاز، المرجع السابق، ص83.
4 البكري، المصدر السابق، ج 2، ص249.
5 الدرجيني، المصدر السابق، ج 1، ص41.

ما بني في النهار فتوجهوا لتيهرت الحديثة"[2].

وأما عن إمامة عبد الرحمن أورد ابن الصغير أنه قد تم اختياره بعد بناء تيهرت، إذ رأوا لابد لهم من إمام يحتكمون له ووجدوا أن هناك عدة تجوز فيهم الإمامة، فثبت الرأي على ابن رستم عبد الرحمن، وخاصة أن أبا الخطاب كان قد ولّاه القيروان من قبل، مما دلّ على صلاحه وسداد رأيه، وكما أنهم خشوا أن يتولاهم واحد منهم فيقدم قبيلته وعشيرته على سائر الجماعات، فيقع الخلاف وتثور فتنة السلطة بينهم، "واجتمع رؤساؤهم فقالوا قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا بإمام نرجع إليه في أحكامنا... فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر مدبر أمر القبيلة ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم لبعض... ولا نأمن أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته فهل المقدم برفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف... ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له ولا عشيرة وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن... قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم... ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك و نقدمك... فقال لهم... قبلت ذلك"[3]، وهذا الأمر هو ما سدد لهم الرأي، وأصاب موضع الصلاح لهم، إذ بعد توليه الإمامة سنة 160 واستقام أمرهم ونزلت حولهم جموع الإباضية، كما دانت له طرابلس وجبل نفوسة، وجاءته الإمدادات من المشرق لما رأوا من عدله وحسن سيرته ومحبة الرعية له، كما أن بعض الجماعات الدينية القريبة منهم قد خضعت[4]، "أخبرني غير واحد من وجوه الإباضية عن سلفهم أنه لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من أمور الناس شمر ميزره وأحسن سيرته وجلس في مجده من أمور الأرملة والضعيف، فصار في ذلك أطراف الأرض مشارقها ومغاربها حتى اتصل ذلك من إخوانهم من أهل البصرة... فلما علموا من أمره جمعوا أمولا"[5]، وكان قد استشارة الناس على المال المحمول لهم، فكان رأيهم ان يصرف في خدمة الفقيرة والسلاح، وحسنت أحوالهم و شرعوا في بناء العمارة بعد الأمان الذي حازوه، وتغير حال تيهرت، فعادوا بالإمدادات من المشرق مرة أخرى، ولكن هذه المرة قد ردوا له الأمر فرأى أن أصحابهم في المشرق أولى بها منهم لما يعانون منه من الجور في بلدهم فيدارون به على دينهم ومالهم[6].

---

1 ابراهيم بحاز، المرجع السابق، ص87.

(2) البكري، المصدر السابق، ج3، ص249.

(3) ابن الصغير المالكي (حي القرن الثالث الهجري)، أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد ناصر، ابراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص-ص25-26.

(4) نفسه، ص26.

(5) ابن الصغير، المصدر السابق، ص28.

(6) الشماخي، المصدر السابق، ج1، ص126.

توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 170هـ ، وقد أرسى قواعد دولته، و أحكم سياسها، وأحسن تدبير شؤونها، ثم تولى بعده ابنه عبد الوهاب، وذلك بعد أن جعل والده الأمر شورى بين كبار علمائهم وأصحاب مجلس الدولة، وهنا وقع أول خلاف بين الإباضية، وظهر أول افتراق في صفوفهم، ويصف ابن الصغير أن عبد الوهاب كان حسن السيرة والأخلاق، ومحمود الأفعال، وكان مؤهلا للإمامة[1]، وكان بين وجهاء الإباضية من يرى فيهم أهلية الإمامة، مثل مسعود الأندلسي، لكنه لم يشأ لنفسه الإمامة، وتقدم لمبايعة عبد الوهاب، "فلما أراد الناس مبايعة عبد الوهاب...فتكلم يزيد بن فندين نبايعه بشرط ألا يقضي دون جماعة معلومة[2]، وقد بطلت هذه المقالة من علماء المشرق غير أنهم رفضوا الفتوى.

لأنهم طمعوا في السلطة والإمامة، وأنكروا إمامة عبد الوهاب، ومن بينهم يزيد بن فندين، ومعه ابن شيعب الذي قدم من المشرق واستماله ابن فندين وأصحابه ورغبوا فيه للسلطة، "وذلك أن عبد الوهاب لما ولي أمور المسلمين وكانت رغبته في أهل الخير ... فعمد إلى رجال ليست لهم رغبة في الولايات، فولاهم أمورهم... فلما نظر يزيد بن فندين وأصحابه إلى ما فعل تغيرت قلوبهم و تنكرت صدورهم... وبعثوا رسولين إلى المشرق... فردوا الجواب بإثبات ولاية عبد الوهاب، وإبطال الشرط[3].

وعلى هذا افترق الإباضية إلى الوهبية* والنكار**، وكانوا في موضع يقال له كدية، ثم بعد ذلك قامت الثورة، حين التمسوا أصحابها انشغال عبد الوهاب خارج عاصمته، فتهيئوا للحرب. ولكن كانت الغلبة للسلطة، إذ تمكن منهم أفلح بن عبد الوهاب، فتفرق أتباعه ورجعوا إلى مقرهم الكدية، وبقيت صراعاتهم مع عبد الوهاب قائمة حتى انتهت بمقتل ولده ميمون، فأرسل حفيده في قتالهم فهزمهم ، وتشتت أمر النكار فيما بعد[4]. و قد ذهب الأستاذ بحاز ابراهيم في دراسته لنظام الحكم عند الرستميين إلى أن الإمامة لم تُبْن على الشورى كما تزعم بعض المصادرة بل كانت وراثية في حقيقتها، مستدلا على ذلك بوصية عبد الرحمن لابنه، وبتصرفات لاحقة تثبت انحراف الرستميين عن أصل مبدئهم في الشورى[5]. ويؤكد الباحث أن مسألة البحث عن ابنه الإمام أبي اليقظان، لم تكن سوى دليل على تثبيت الإمامة في عقبه عقبه دون غيره مما يجعل النظام أقرب إلى ما كان عليه الحكم عند الأمويين والعباسيين.

---

(1) ابن الصغير، المصدر السابق، ص36.

(2) ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص87.

(3) نفسه، ص،ص، 89، 92.

* **الوهبية**: هي الإباضية الأم الحاكمة في الدولة الرستمية، وهي نسبية إلى الأمام عبد الوهاب، وظهرت التسمية إثر فتنة النكار، تقلا عن ابن الصغيرة المصدر السابق، ص37.

** **النكار**: هم أتباع يزيد بن فندين وأبو قدامة النكاري، وسموا بالنكار لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب وثاروا ضده، ولقد تطورت هذه الفرقة التي انسلخت عن الإباضية الأم، أنظر ابن الصغيرة، ص37.

(4) ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص-ص 89-100.

(5) ابراهيم بحاز، المرجع السابق، ص-ص 114-117.

و يعزز رأيه أيضا اختلاف روايات المصادر الإباضية نفسها، ما بين من ذكر الشورى ، ومن أثبت التعيين الصريح[1].

وفي تقديري، فإن هذا الرأي يفسر جانبا من التوترات التي نشأت لاحقا سواء مع ابن فندين والنكار، أو مع بعض وجهاء الإباضية، إذ لم يكن الخلاف على أهلية عبد الوهاب، بقدر ما كان على تغييب مبدأ الشورى الذي قام عليه المذهب في الأصل.

وفي خضم هذه الأحداث، كانت هناك أيضا صراعات مع الواصلية، وقد بلغ الأمر أن وقع التناظر بين الفريقين، فهزمهم عند الوهاب، وكان قد استنجد ببعض أهل الرأي والمعرفة من جبل نفوسة وطرابلس، فأتاه أربعة، فتمكن بهم من هزيمتهم[2].

تروي المصادر الإباضية حصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لمدينة طرابلس والذي انتهى بالفشل. إذ يروى أنه لما علم أنه لم يبق معه غير وزيره، اضطر إلى فك الحصار والانسحاب. وكان هذا الحصار قد وقع بعد أن قرر عبد الوهاب أداء الحج، غير أن رعيته أشاروا عليه بعدم السفر، قائلين إنه سيقتل هناك إذا ما سمع به أهل المشرق، فعدل عن عزمه، وأقام في جبل نفوسه سبع سنوات، "أن الإمام أراد المسير إلى الحج، فأخذ في أهبة السفر... ثم توجه الى جبل نفوسة، فاجتمعت عليه جموع نفوسة فأخبرهم بما عزم عليه من تيممه الحج... فقالوا نخشى عليك المسودة... أخذ بجواب الربيع وأرسل من يحج عنه". "وأقام بجبل نفوسة في تلك الحالة سبع سنين... جمع جموعا كثيرة وعسكر ونزل على مدينة طرابلس محاصرا لها ومحاولا دخولها في الطاعة... ثم رأى الصواب في الارتحال عنها"[3].

ومن أحداث ولاية عبد الوهاب، وقد كان أيضا في الإباضية الافتراق الثاني، وذلك حيث تولى السمح بن أبي الخطاب أمر جبل نفوسة، فلما توفي بايع الناس ابنه خلف، غير أن خلف رفض إمامة عبد الوهاب، فثاروا عليه، فاستكبر وشكل عليهم حلفا وحاربهم، رغم فشاري المشرق التي أكدت أن الخروج عن الإمام لا يجوز، وأن طاعته واجبة وحق، وظل الخلاف قائما إلى تولى الإمامة أفلح[4]. وقد ذكر ابن أبي زكرياء أن ولاية أفلح عرفت فيها الدولة استقرارا وقوة إذ استطاع أن ينهي خلاف خلف بن السمح، ويعيد الناس إلى الطاعة، فاستتب له الأمر واستقرت الدولة. "ثم إن جماعة المسلمين بتاهرت لما توفي عبد الوهاب بتاهرت، وقد ألم بهم بجبال تاهرت من العدو كثير، ابتدروا أفلح، فولوه على

(1) نفسه، ص – ص 116 – 117.
(2) الدرجيني، المصدر السابق، ص–ص، 57–62.
(3) نفسه، ج 1، ص–ص، 65–67.
(4) نفسه، ج 1، ص–ص، 67–71.

أنفسهم من يومهم ذلك، وكان ميمون النقية، فسكّن الله به البلاد ووقي به العباد"، "فلما هزمهم الله، افترق جل أصحابه عنه من نفوسه وغيرهم، فصاروا يأتون إلى أبي عبيدة يتوبون ويقبل منهم... ويرجعون عن خلف"[1].

بعد وفاة أفلح سنة 258هـ، بويع ابنه أبو بكر بالإمامة ، لكنه لم يكن في صرامة آبائه بل كان ليناً، محبا للترف، وفي عصره برز مُحَمَّد بن عرفة، رجل ذو وجاهة وهيبة، ارتبط بأبي بكر بصلة المصاهرة، لكن نفوذه تعاظم حتى صار هو الحاكم الفعلي، وأصبح أمر الإمامة لابي بكر اسما، وتفاقم الوضع حين أقدم أبو بكر على قتله سرا بتحريض من بطانته، مما فج الفتنة داخل العاصمة، وانقسمت البلاد إلى طوائف وقبائل متناحرة، واشتدت الصراعات الداخلية، ولم تهدأ الأمور إلا بعد عودة أبي اليقظان بعد سبع سنوات من الفوضى[2].

وتلاحظ هنا تباينات في المصادر الإباضية، فأشار الدرجيني وابن أبي زكرياء إلى إمامة أبي بكر بن أفلح إشارات عابرة، معتبرينها لمحة عارضة أو مرحلة مضطربة في عمر الدولة الرستمية، بينما ابن الصغير يذكر تفاصيل هذه المرحلة بدقة.

وأظهر بحاز ابراهيم أن ولاية أبي بكر كانت بداية انهيار الدولة، وأن النظام الوراثي الذي ثبت في الرستميين هو السبب في انطفاء روح الشورى، وتسبب في تلك الأزمة السياسية[3].

غير أني أميل إلى أن الاشكال لم يكن في الوراثة ذاتها، وإنما في شخص أبي بكر نفسه، إذ أن من سبقه –كأبيه أفلح– ثم من بعده أخيه أبي اليقضان الذي سيطفئ نار الفتنة، حكموا بالوراثة وأحسنوا التدبير وقادوا الدولة بقوة اقتدار، مما يدل أن الوارثة لم تكن وحدها سبب الانهيار، بل ضعف الحاكم وسوء قراراته وسوء تدبيره وتحكمه في القبائل.

فلذا كانت ولاية أبي بكر إحدى أعنف الفتن في تاريخ الرستميين التي أو هنت بنيانهم وفرقت صفوفهم، ولعل هذا ما جعل المؤرخين الإباضية يتفادونها.

تولى مُحَمَّد بن أفلح بن عند الوهاب الإمامة، ولم يكن منهم في توليته اختلاف، وبلغ العدل والفضل وهدّء الفتنة وسيطر على القبائل المتناحرة وأرسى نظام أجداده من جديد، وقد مكث في إمامته أربعين سنة حسن السيرة[4]، فلما مات تولى الإمامة ابنه أبا الحاتم يوسف بن مُحَمَّد، وكانت مدة حكمه 12 سنة، كان حسن السيرة رغم النزاع الذي نشأ لا حقا مع ولد ابن خلف الذي تحصن مع انصاره قرب طرابلس، ورفض الطاعة إلا أنه هُزم فيما بعد، بعد معركة وتم سجنه وتحسنت أحواله الدينية[5]، وفي هذه الفترة أيضا عرفت الفتنة، وتصاعدت نيران الصراع على الملك، فالأستاذ بحاز يفسر

(1) ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص–ص، 127–137.
(2) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص–ص، 61–73.
(3) ابراهيم بحاز المرجع السابق، ص–ص، 123–125.
(4) ابن ابي زكرياء، المصدر السابق، ص147.
(5) نفسه، ص–ص 150–153.

أن هذه الفترة قد برزت فيها جرثومة النظام الوراثي والتنافس على السلطة أو الإمامة[1]، فاثني عشرة سنة فترة حكم أبي حاتم كانت في صراع مع عمه يعقوب على السلطة، وكذا فتن وصراعات المذهب الإباضي المنشق (نكار، وهبية)، وصراعات ولاة مناطق، مثل ابن خلف بن السمح الذي ذكرناه سابقا زاد من فتنته.

هذه الصراعات أرغمت الإمام مغادرة العاصمة، وحكم يعقوب بن أفلح أربع سنوات، إذ أنه كان قد غادر المدينة العاصمة منذ تولية ابن أخيه، ونزل بزواغة فلم يدخل الرستمية، ولا أعان ابن أخيه[2].

ثم عاد أبو حاتم وحاصر العاصمة، حتى كانت حكمة أبو يعقوب المزاتي في حملهم على الهدنة، وعادت إمامة أبو حاتم 286 هـ، حتى قتل من قبل بني أخيه سنة 294هـ يقظان بن أبي يقظان[3].

وبالحديث عن الفتن الداخلية في الاسرة الحاكمة، لا بد من التطرق إلى دور القبائل في هذه الصراعات، فقد أشار بن عميرة إلى تفاعل بعض القبائل وخاصة زناتة، مع الفتنة التي اندلعت في عهد أبي حاتم، سواء بمساندته أو الوقوف ضده، فيذكر أن القبائل التي وقفت إلى جانبه صحراوية، ويرجح أنها من فروع قبائل زناتة، وذلك نظرا إلى أن معظم الزناتيين بدو صحراويين، وأيضا لا يستبعد أنه من الممكن أنهم وقفوا ضده عندما حوصر[4]، إلى جانب زناتة فقد كانت لواتة من القبائل التي وقفت إلى جانب أبي حاتم، وأيضا نفوسة "ونخرج نحن إلى حصننا الذي به مواشينا وعبيدنا، وهو حصن يعرف بينما لبث في طرف لواتة، واجتمعنا به ورأينا لواتة وغيرها من القبائل ناصرنا أخرجناك إلينا، ففعلوا ذلك فلما رات بقية العجم الساكنين بمدينة تاهرت ما فعلت الرستمية، خرجت إلى حصنها، وفعلت نفوسة مثل ذلك"[5].

كما يرى ابن عميرة أن القبائل البربرية ليست السبب الرئيس في سقوط الدولة " وسقطت الدولة الرستمية بعد الاضطرابات الداخلية الكثيرة"، ويرى أن قبيلة زناتة كانت علاقتها حسنة مع الدولة، "وهذا دليل على أن زناته كانت موجودة في تاهرت، وأن علاقتها بأبي اليقظان كانت جد حسنة"[6].

وهكذا يتبين من خلال هذه الدراسة أن سقوط الدولة الرستمية في أيدي الشيعة الإسماعيلية، لم يكن لحظة مفاجئة، بل كان نتيجة تراكمات داخلية متشابكة.

فقد تضافرت الصراعات السلطوية داخل الأسرة الحاكمة، وتنازع الاجنحة الدينية، منشقة على المذهب، إلى جانب أطماع بعض القوى القبلية التي سعت إلى حكم منفرد أو توجيه القرار السياسي لخدمتها.

---

(1) ابراهيم بحاز، المرجع السابق، ص-ص، 123-125.

(2) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص-ص 95-96، ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص287.

(3) ابن عذراء المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص279.

(4) محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص134.

(5) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص- ص93 – 94.

(6) محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص135.

ولعل بداية الانهيار تقود إلى الضربة القوية التي تلقتها نفوسة في وقعة مانو، حين أوقع بها ابن الأغلب قتلا وخرابا، ففقد الرستميون بذلك حصنهم الجنوبي المتين كما يصفه بحاز[1]، ولهذا حققت الخلافة المشرقية بأنها أول مواطن الخوارج، فقد كانت تمثل نفوسة خط الدفاع الأول عن الإباضية والرستميين، وبهذا يكون أنهك الداخل نفسه بنفسه، فسهل على الخارج أن يجهز عليه.

وذكر ابن أبي زكريا، أن جماعات من الواصلية والصفرية قد شكوا إليه الرستميين، ووعدوه العون عليها، وكذلك قبل أن ابنت حاتم دوسر ا لما قتل أبوها قد استدعت الشيعي للانتقام من الاسرة الرستمية على قتل أبيهم[2]، فكان دخولهم لها دون مقاومة من الشيعة.

بعد انقضاء الدولة تعرفت الإباضية وفروا إلى الصحراء هربا من أعمال الشيعي، وخوفا على من مذهبها منه، فكانت ورجلان الملجأ اليهم، وأن عسكر الشيعة لحقوهم وحاصروهم فتحصنوا بموضع الكدية المعروفة بكريمة[3]، وانتهى عنهم الحصار إذ أنهم رحلوا عنهم[4].

2-2- القبائل البربرية والمشروع السياسي للعلويين في المغرب الأوسط "الأدارسة، السليمانيين".

انتشر المذهب الزيدي الاعتزالي في الجهة الغربية من المغرب الأوسط، وكذا في المغرب الأقصى. وقد شكل في تلك المرحلة غطاء فكريا حاميا للتيار المعتزلي، الذي لم يتمكن من التبلور في كيان سياسي مستقل، ربما بسبب حدة الصراعات المذهبية التي شهدها المغرب الاسلامي عموما، وتجدر الاشارة إلى بعض القبائل مثل أوربة، كانت ذات توجه اعتزالي، كما عرف زعيمها بميله لهذا المذهب[5]، ومن هذا المنطلق، سيتناول هذا الجزء من الفصل بيان أبرز القبائل التي اعتنقت المذهب الزيدي الاعتزالي، ودانت له.

- قبيلة أوربة: هذه القبيلة من القبائل البرانس ، وهم من ولد أورب بن برنس، ولها بطون كثيرة منهم : بجاية نفاسة، ونعجة، وزهكوجة، ومزيانة، ورغيوتة، وديقوسة، وعند نزول إدريس بن عبد الله كان أمير هذه القبيلة إسحاق بن مُحَمَّد بن عبد الحميد[6].

- زواغة: هؤلاء من البربر قال عنهم ابن خلدون أنه لم يصله من أخبارهم وتصاريف أحوالهم، ولكنه ذكر بطونهم وهم ثلاثة: دمر بن زواغ، و بنو واطيل زحبك بن زواغ، وبنو ماخر بن تيغون من زواغة.

(1) ابراهيم بحاز، المرجع السابق، ص- ص 129-130.

(2) ابن ابي زكرياء، المصدر السابق، ص . 169 .

(3) نفسه، ص171.

(4) الدرجيني، المصدر السابق، ج4، ص96.

(5) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص19.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص،ص، 192، 195.

ومن دمر ببو سمكان وهم أوزاع في القبائل، وهم بنواحي طرابلس، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر، وفي جهات قسنطينة وكذلك يجبال شلف بنو واطيل[1]، وبنواحي فاس، وهذه القبيلة من البتر.

– **زواوة:** وهؤلاء البرابرة من البتر من ولد سمكان بن يحيى بن ضري بن زحبك ابن مادغيس الأبتر، يقول ابن خلدون أنهم من برابرة زناتة لان أباهم أجانا هو أخو سمكان ابن أبيه فلذلك كانوا ذوي قربى لهم[2].

– **مكناسة:** وهم من بني لورصطف بن يحيى، وهو أخو أجانا بن يحيى وسمكان بن يحيى ثلاثة من البطون، وهم مكناسة وورتناجة وأوكته وبطون مكناسة: صولات وبوحاب وبنو ورفلاس ووردينوس وقيصارة ونبعة وورقطنة، فهذه القبيلة كانت من جهات تازا وتوسول و ملوية ومليلة للأدارسة[3]، لأن أصل هذه القبيلة تدين بالمذهب الخارجي الصفري، إلا أن بعض من بطونها دخلوا في طاعة ادريس بن عبد الله[4].

– **لماية:** وهؤلاء بطون مصغرة. من ولد فاتن بن ممصيب بن حريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، ولهم بطون كثيرة منها سابق وأصحابه: بنو زكرمار و مزيزه و مليزة و بنو مدنين كلهم من لماية، كانوا منتشرين في إفريقية والمغرب وجمهورهم بالمغرب الأوسط[5].

– **مطماطة:** وهم إخوة مصغرة، وهم من ولد لوا بن مطماط وأنه كان له ولد آخر اسمه ورنشيط، ولم يذكروا له عقبا، قالوا: كان للوا أربعة من الولد وميلاغر ووريكول ويليص، ولم يعقب يليص، وأعقب الثلاثة الباقون، ومنهم افترقت شعوب مطماطة.

– **زناتة:** كانت زناتة من بين القبائل التي دانت بالمذهب الزيدي، وساهمت في المشروع السياسين ومن بطونها: بنو يرنيان، وهؤلاء وهم إخوة مغراوة وبني يفرن والكل ولد يصلتين، ونسبهم جميعا إلى جانا[6]، وهؤلاء حسب رواية اليعقوبي اليعقوبي كانوا يدينون بالمذهب الزيدي وتحت الدولة السلمانية إلى جانب مطماطة[7].

– **جراوة:** بطن من بطون زناتة، وهم من ولد كراو بن الديرت بن جانا، مواطنهم منهم بجبل الأوراس[8].

هذه القبائل البربرية التي سبق ذكرها، كان من بينها من دان بالولاء وبايع العلويين على السلطة، ومنها من أذعن عن بالقوة أو دخل في مصالحة معهم، وهذا حسب ما ورد في المصادر التاريخية فأوربة وبطون زناتة كانتا من الذين بايعوا،

(1) نفسه، ج6، ص170.
(2) ابن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص168.
(3) نفسه، ج6، ص170.
(4) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص-ص15-16.
(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص158.
(6) نفسه، ج7، ص68.
(7) اليعقوبي، المصدر السابق، ص-ص191 – 196.
(8) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص12.

إلا أن الصراع المذهبي بين الخارجية الإباضية والأدارسة في المغرب الأوسط أورث حالة من الإنهاك وكثرة الحروب بينهم أثر على بطون زناتة خاصة، فسعت كعنصر وسيط لفض النزاع، غير أن عبد الوهاب رفض حسب ما أورده بن عميرة في دور زناتة[1].

ولم يكن المشروع السياسي لدى الأدارسة والسليمانيين بعيدا عن طبيعة انتماءاتهم، فقد لعبت القبائل البربرية، خصوصا أوربة وبعض البطون من زتانة دورا في قيام سلطة العلويين، فالعلاقة بين الدعوة والانتماء القبلي كانت مدخلا لفهم تحركاتهم السياسية ومسار الصراعات التي شهدها المغرب الأوسط في تلك الفترة.

– المشروع السياسي للعلويين في المغرب الأوسط والأقصى

كان دخول إدريس بن عبد الله إلى المغرب، كما ذكرنا آنفا، عقب وقعة فخ وما جرى فيها، إذ دخل متخفيا بصحبة عامله راشد في زي التجار حتى بلغ تلمسان واستقر بها برهة، ثم بدا له أن يقصد طنجة، ومنها انتقل إلى وليلى، فاستوطنها وأخذ فيها البيعة سنة 170هـ بعد أن عرفه أهلها وأثبتوا نسبه الشريف، وكانت قبائل أوربة هي أول من بايعه "ثم أتته قبائل زناتة، ومنهم زواغة، ولماية، وسدراتة، وعيانة ونفرة ومكناسة فبايعوه ودخلوا في طاعته[2].

فلما استقرت الامور له، شرع ينظر في أمر تلمسان، فأتاه أميرها مُحَمَّد بن خرز بن صولات المغراوي[3]، وطلب منه الأمان، فأمنه و بايعه، فدخلها إدريس وفتحتها وبنى فيها مسجدا، وكتب عليه "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، وذلك في صفر سنة 114هـ"[4]، ثم جاءها أخوه سليمان، فنزل بها وطلب فيها البيعة، وكان قبلها قد قصد مكان أخيه إدريس بعد مهلكه على حسب رواية ابن خلدون، فاستنكره البرابرة فعاد إلى تلمسان واستوطنها وأذعنت له زناته. وكان له من الولد، قد فترق بنوه عليها في المغرب الأوسط[5].

ويرى محمود إسماعيل أن الإمارات العلوية قد ارتبطت بالتشيع الزيدي، فكرا ودعوة، وأن هذا الارتباط لم يكن طارئا بل كان أمرا مدبرا ومفكرا فيه من المشرق[6].

(1) مُحَمَّد بن عميرة، المرجع السابق، ص– ص .

(2) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص–ص 15–20.

(3) ابن خلدون المصدر السابق، ج 4، ص 23.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 20.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 23.

(6) محمود اسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى (172هـ – 375هـ) حقائق جديدة، ط1، مكتبة الفلاح للنشر و التوزيع، الكويت 1409هـ/ 1989م، ص21.

وهذا الرأي أراه صائبا، ويدلل عليه ما نعلمه من أن أول من بعث بالدعوة كانوا من آل البيت أنفسهم، ومنهم عيسى أخو إدريس، وسليمان وهم إخوة مُحَمَّد النفس الزكية هو الذي بعثهم، مما يشير إلى أن الدعوة العلوية كانت مؤسسة منذ البدء مشروع ديني سياسي متكامل لا مجرد رد فعل عفوي.

ثم وضح أن إدريس وسليمان كانت عودتهم إلى المغرب مرة ثانية ليس مجرد هرب من خطر العباسيين، بل كان نتيجة أمرين، الأول مواصلة الدعوة الزيدية، والثاني تفكير في دولة مستقلة بعد الفشل في المشرق.

ثم يفسر أمر اختياره لمولاه راشد ليس عبثا بل لأنه ينتمي إلى قبيلة أوربة البربرية، وأن دوره لم يكن فقط دله على الطريق، بل التمهيد لاتصاله بزعيم الأوربة لتأسيس الدولة الإدريسية وكذا الدعوة العلوية[1].

وهذا الرأي والتفسير أراه صائبا، وذلك لما قدمه ابن أبي زرع عن معاملة مولاه له، وكيف كان يهتم به، وخاصة أن إدريس كان قد تركه عند خروجه من مصر ثم التقيا فيما بعد وأيضا أنه نزل تلمسان وغادرها ثم طنجة وكان غادرها بعد أن جلس فيها أياما"، وخرج إدريس مع الرجل المصري على البرية حتى وصل به إلى مدينة برقة، فقعدا حتى لحق بهم راشد"، حتى وصلا إلى مدينة تلمسان فاستراحا بها أياما، فارتحلا عنها نحو بلاد طنجه..."[2]، وبعد أن مات إدريس وخلفه ابنه بعد أن كان راشد يتولى أمر الدولة، نظرا أن أباه قد مات مقتولا من طرف أحد رجال خليفة العباسي[3]، وتذكر المصادر أن إدريس الثاني قد ولي سنة 187 هـ[4]، وأنه قد دخل وفتح مدينة تلمسان وأصلحها وبنى في مسجدها مسجدها منبرا، وأنه قد أقام بها ثلاث سنين، ثم رجع إلى فاس[5].

وقد ذكر ابن عذارى، وكذا ابن أبي ازع الفاسي أن سليمان قد دخل في حياه أخيه إدريس، أما ابن خلدون يورد رواية مغايرة، إذ يرى أن دخول سليمان كان بعد وفاة أخيه، وقد أوضحنا فيما سبق تذبذب هذه الروايات واختلافها في تحديد زمن دخوله.

لكن دخول إدريس الثاني إلى تلمسان مرة أخرى في هذه الفترة وانشغاله بإصلاحها، يفتح المجال أمام جملة من التساؤلات لعل أبرزها: هل كان سليمان لم يستقر بها بعد؟ أم أن ضرورات سياسية قد ألزمت إدريس الثاني بالتوجه اليها؟ أم أن الإمارة السليمانية كانت في الأصل تابعة لسلطة الدولة الإدريسية وليست كيانا مستقلا عنها؟

(1) محمود اسماعيل، المرجع السابق، ص-ص 50-51.

(2) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص16.

(3) نفسه، ص-ص 16-19.

(4) ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص

(5) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص،ص 50،51.

وفي هذا السياق، يرى إسماعيل العربي أن ابن سليمان مُحَمَّد قد استدعى إدريس الثاني ليستعين به في مواجهة الخلافة المشرقية وتوسيع رقعة نفوذه[1]، وهو ما يفهم في سياق العلاقة النسبية والمذهبية التي جمعت بين البيت السليماني والإدريسي أكثر من كونه خضوعا سياسيا مباشرا.

فبعد سليمان بن عبد الله كانت الولاية لابنه مُحَمَّد وتقسمت تلمسان على بنيه عمر، عيسى، والقاسم، "وبقيت تلمسان لولد سليمان عن عبد الله، وخرج عيسى بازمور على أخيه مُحَمَّد طالبا الأمر لنفسه، فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع..."[2]، ، غير أن ابن عذارى يقول أن أولاد هؤلاء أولاد ادريس، وكذا ابن أبي زرع الفاسي، ، "وترك من الولد اثنتي عشر، وهم: مُحَمَّد، أحمد، عبد الله ، عيسى...، وعمر...، فولي منهم مُحَمَّد بن إدريس"[3]، "وكان له من الولد اثني عشرة ذكرا، منهم مُحَمَّد، عبد الله، عسى، إدريس... فلما ولي قسم البلاد على إخوته"[4].

ورواية ابن خلدون مطابقة لرواية اليعقوبي "ومدينة مذكرة فيها من ولد مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن..."، "ومدينة الخضراء يتصل بها مدن كثيرة... يتغلب على هذا البلد ولد مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله..."، "ومن هذا الموضع البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي... وأول ممدن التي في بدى يقال هاز..."[5]، هاز..."[5]، وكانت هذه الأخبار التي نقلها اليعقوبي في القرن 3 الهجري.

و بذكري لهذه الروايات من المصادر ما هي إلا لتوضيح التباين القائم فيها، إذ كل منهم بذكر نسب الاخوة إلى سليمان أو ادريس حسب ما ذكرت سابقا.

أما في الدراسات المعاصرة، يرجح اسماعيل العربي أنهم أبناء سليمان مستدلا برواية اليعقوبي[6]، في حين يرى محمود اسماعيل أنهم من أبناء إدريس[7].

وأمام هذا التباين، وبالنظر إلى تشابه الأسماء بين أولاد إدريس وسليمان، أرى أن الحسم في هذا النسب يبقى متعذرا، غير أن ما يدعم رواية انتسابهم إلى سليمان هو ما أورد اليعقوبي أن مُحَمَّدا من أولاد سليمان و بتعديد مدنهم وذكر أنهم النسب السليماني[8]، وبناء على ما سبق، وبصرف النظر عن النسب فإن ما يعنينا في هذا الموضع هو الأحداث السياسية بين هذا الجيل من البيت العلوي، والتي أدت إلى تحولات بارزة في الخارطة السياسية للمغرب الأوسط.

(1) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص144.
(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص19.
(3) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 ص299.
(4) ابن ابي زرع القاسي، المصدر السابق، ص-ص 51-52.
(5) اليعقوبي، المصدر السابق، ص-ص 191-192.
(6) اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص، ص 135 ، 145.
(7) محمود اسماعيل، المرجع السابق، ص-ص 88-89.
(8) اليعقوبي، المصدر السابق، ص-ص 191-192.

وحسب ابن خلدون، فقد استقر مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله وخرج عيسى على أخيه طالبا الأمر لنفسه، فتعاون مع أخيه عمر بعد أن رفض القاسم، وقد عين أخوه عمر على ما استولى من أخويه، أما القاسم فبنى لنفسه رباطا للعبادة إلى أن هلك، و عمر صار له الريف البحري، تيكيشاش، وبلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة...[1]، ثم إن الامر ولى فيما بعد إلى يحيى بن مُحَمَّد ثم الأمر ما لبث إلى أن انقلب إخوته عليه وهرب إلى الأندلس، وبها مات، وولى الأمر إلى علي بن عمر بن إدريس، ولكن قد استولى على ملكه الصفري عبد الرزاق.

ثم ولي يحي بن إدريس بن عمر إدريس...[2]

ومن انتقال الحكم من ولي إلى آخر. هذا الأمر أوهن الإمارتين مما أغضب العامة، إضافة إلى صراعهم مع الأغالبة، ومحاولتهم إلى امتلاك تلمسان وسلبها منهم، وأيضا الخلاف الأموي في الأندلس بين الإمارتين السليمانية والإدريسية، إذ أن هذا الخلاف منذ القدم الأمويين والنسب الشريف الحسني، هذا كله ساعد الشيعة في السيطرة عليهم، وانحصار حكمهم في تلمسان فقط، وبقوا في أطراف الجبال وهم معروفون هناك[3].

ومجمل القول في هذه الدراسة أن نسب مُحَمَّد وإخوته عيسى وعمر والقاسم أن ابن عذارى وكذا ابن زرع الفاسي يقولون أنهم من ولد إدريس، وأن الدولة قد قسمت بينهم.

واليعقوبي يقول أن مُحَمَّد بن سليمان كانت له تلمسان، أما ابن خلدون فقد أورد روايتين وهما، أن بنو سليمان هم من قسموا الدولة بينهم، "وورث ملكه ابنه مُحَمَّد بن سليمان على سنته، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط"[4]، ثم أورد أورد أن الملك آل إلى بني إدريس من ولد مُحَمَّد الذي قسم البلاد من أمر جدته كنزة[5].

وفي ضوء هذا التباين في الروايات يصبح من الضروري النظر في الأسباب العميقة التي عجلت بسقوط المشروعين، إذ لا يتصور أن تكون المعطيات كفيلة بتفسير هذا السقوط، ما لم يؤخذ في الحسبان ما كان يدور في الخفاء من صراعات قبلية كانت لها اليد الطولى في تقويض أسس الكيان، فهذا ابن أبي العافية كان قد تملك دولة الأدارسة ومضاربها وأجلى الأدارسة عن بلادهم حسب ما يذكر ابن أبي زرع الفاسي، وقد تمكن من تلمسان وأخرج منها العلويين ثم يعود مسور وينزع منه الملك ويفر ابن أبي العافية إلى الصحراء[6].

وهذا ما أضعف وأسقط الدول العلوية في المغرب الصراع الأسري وانقسام البلاد على الإخوة والأحفاد خلق صراع داخلي وقبلي تمثل في نهضة ابن أبي العافية، ويفسر أيضا مُحَمَّد إسماعيل أن من ضمن الصراعات كانت حروب إقطاعية،

(1) ابن خلدون المصدر السابق، ج4، ص-ص 22-23.
(2) ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص-ص، 301-302.
(3) ابن خلدون المصدر السابق، ج4، ص23.
(4) نفسه، ج4، ص22.
(5) نفسه، ج4، ص23
(6) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص-ص 83-86.

وأيضا صراعات عصبية بين القبائل التي كانت تحت سلطة العلويين، البربر، العرب، اليهود، الفرس والأفارقة، هذه التي فجرت حروبا بين السهل والجبل، الرعاة والمزارعين[1]، هذا الذي فك قوى الدولتين وأضعفها وجعلها سهلة للعبيديين للاستلاء عليها، هذه التي سيكون لها الكيان السياسي والديني المختلف، الأمر الذي سيعيد تشكيل الخارطة السياسية في بلاد المغرب الإسلامي.

2-3- الشيعة والقبيلة: من الدعوة المذهبية إلى الطموح السياسي

بعد دخول دعاة جعفر الصادق إلى بلاد المغرب ونشر المذهب الشيعي الإسماعيلي وإخفاق الحلواني وأبي سفيان في إنشاء الكيان السياسي حتى قدوم صاحب الحق، كان لا بد من قدوم شخص يتمم المشوار فأتى أبو عبد الله الصنعاني وجمعوا له مالا لسفره وقصد مكة، وكان موسم الحج حيث استهدف لقاء حلف كتامة، فأعجبوا بعلمه وفصاحة لسانه وعرضوا عليه القدوم إلى بلاد المغرب، غير أن موسى لقبال ينفي أن يكون هذا اللقاء وليد المصادفة بل يذهب إلى كونه ثمره تخطيط مسبق، وتنسيق محكم[2]، وهو ما تؤكده روايات ابن خلدون وابن عذارى التي أوضحت العناية الخاصة التي حضي بها أبو عبد الله الشيعي[*] قبل انطلاقه، من حيث الدعم المالي والتجهيز الدعوي.

وقبل التوغل في مجريات الأحداث السياسية التي أعقبت هذه المرحلة فإنه من الضروري التوقف عند البعد القبلي الذي اتخذه التشيع الاسماعيلي في بلاد المغرب باستعراض أبرز القبائل التي دانت له، وعلاقتها بالسلطة آنذاك تمهيدا لفهم العوامل التي ساعدت في قيام الدولة الفاطمية لا سيما في فضاء المغرب الأوسط.

ولعل أولى القبائل التي دانت للمذهب الشيعي الإسماعيلي في بلاد المغرب كانت قبيلة كتامة، وهي نفسها التي رغبت في أبي عبد الله الشيعي ودعته إلى القدوم[3]، بعد أن وجدت فيه من البلاغة والعلم وسداد الرأي وما يوافق تطلعاتها السياسية والدينية.

وهي قبيلة عظيمة تنتسب كما يذكر ابن خلدون، من ولد كتام بن برنس و يقال كتام، ونسابة العرب يقولون أنهم من حمير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري[1]، "إن كتامة وصنهاجة لبستا من قبائل البربر، وإنما هما من شعوب اليمانية تركها إفريقش بن صيفي[2]. وقد كانت مضاربها في بارياف قسنطينة إلى تخوم بجابة إلى جبل الأوراس[3].

(1) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص-ص 96-99.

(2) موسى لقبال، المرجع السابق، ص237 .

(*) أبو عبد الله الحسين بن محمّد بن زكرياء المعروف بالمحتسب، كان محتسبا بالبصرة، وقيل أخوه ، وكان يعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية. اتصل هذا بمحمد الحبيب "الذي نزل سلمية من أرض حمص"، ورأى الأهلية فأرسله إلى ابن حوتسب باليمن ليأخذ عنه ويتعلم أكثر، ثم يقصد بلد كتامة بالمغرب فيظهر الدعوة. وذكر ابن عذارى أنه قد جمعوا له الأموال ليتقوى به في سفره انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص41، وابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص116.

(3) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص167.

وبحسب أماكن انتشارها، هذه القبيلة يذكر اليعقوبي أن علاقتها مع سلطة الأغالبة أنهم دائما معارضين أو متقلبين. "مدينة يقال لها سطيف بها قوم من بني أسد بن خزيمة... و بلزمة... وقد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت"، "قوم يقال لهم بنو الصمصامة خالفوا الأغلب ببعضهم"[4]. وهو ما أكده أيضا موسى لقبال في دراسته أن العلاقة معهم شكلية لا تتجاوز الدعاء في المنابر، وكما أنهم لا يتيحوا لهم الفرصة للتدخل في مناطقهم[5].

ومن القبائل التي دانت للمذهب الشيعي، إما طواعية أو تحت وطأة القوة قبائل: أزداجه ويعرفون وزداجة أيضا وهم بطون البرانس و يعدونهم النسابة البربر أنهم من بطون زناته، وأن مسطاسة مندرجون معهم، فيقال أنهم عداد بطونهم، ويقول ابن خلدون أنه لما دخلت الدعوة الشيعة وملك عبيد الله المهدي وأخذت البرابرة بدعوتهم سنة سبع وتسعين وادخلوا فأجابوهم.

وعجسية كذلك من بطون البرانس من ولد عُجَسْيَة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن[6].

صنهاجة: يذكر ابن خلدون أنهم من أخر قبائل البربر، وأما نسبهم فإنهم من ولد برنس ابن بر. وهم من بطون البرانس وقد ذكرنا أنها أيضا ينسبونها إلى حمير، وذكر ابن خلدون نقلا عن الطبري أنهم صنهاج بن بر بن صوكان بن منصور بن الفند بن أفريقش بن قيس، ويذكر النسابة الآخرون أنه صنهاج بن المثنى بن منصور بن مصباح بن بحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصفر بن سبأ، غير أن البربر يقولون أنهم من ولد صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن قيمتا بن سدرو بن مولان بن مصلين... ويزعمون أن جزول واللمط وهكسور إخوة، وأن أمهم بصكي بنت زحيك بن مادغيس[7]

وعقب هذا التمحيص في البنية القبلية العامة للدعوة، يحسن بنا الانتقال إلى المشهد السياسي لرصد تطور الدعوة الشيعية ومساراتها خاصة في المغربي الأوسط ودور القبائل فيها، فمنذ ان استقر أبو عبد الله الشيعي في بلد إنكجان على موسى بن حريث في بلد من سكتان من جبيلة وكان منزله بفج الأخيار سنة 288هـ، واجتمع إليه الكثير من كتامة فجاهر مذهبه[8]، وجاء رمضان وألغى عنهم صلاة التراويح لأنه سنها عمر ﷺ. وأنهم أبدلوها بالصلاة في أواخر صلاة بالسور الطوال، فاستنكروا عليه ذلك وانقسموا مؤيد ومعارض لكنهم وفي حرب دامت 7 سنوات، التزمت جميع كتامة بالطاعة له[9]، وقد أشار بن عميرة إلى هذه المعارضة التي نشبت داخل قبيلة كتامة لم يكن موقف تعبدي بل قالوا بينهم

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص-ص 195-196.
(2) نفسه، ج 6، ص 117.
(3) نفسه، ج 6، ص 195.
(4) اليعقوبي، المصدر السابق، ص- ص 101-190.
(5) موسى لقبال، المرجع السابق، ص 236.
(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص-ص 190-192.
(7) نفسه، ج6، ص201.
(8) نفسه، ج4، ص42.
(9) ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص-ص 170-171.

أن هذا الأمر فيه خير لما ستر، وما هو إلا خلاف دين الاسلام[1]، ويبدو من خلال ما أورده ابن عذار، وابن عميرة، أن أن الانقسام داخل كتامة والمعارضة لم يكن سطحيا، بل عكس بوضوح طبيعة التوتر العقائدي الذي واجهته الدعوة الاسماعيلية في بداياتها، ويكمن أن يفهم من ذلك أن مشروع أبو عبيد الله الشيعي لم يكن سلسا كما قد توحي بعض الروايات، بل واجه مقاومة داخل الحلف ذاته، مما يرجح أن السيطرة التي حققها لاحقا كانت ثمرة صبر سياسي وديني طويل، لا مجرد اجتماع والتفاف حوله فوري.

ثم بعد أن أخضعت الجماعات المعارضة واستتب الأمر لأبي عبد الله الشيعي، شرع في تنفيذ خطته للسيطرة على مدن الأغالبة، فكانت البداية بعد أن راسله ابن الأغلب وأساء الرد له، ومن هذا الفعل اجتمع كل من صاحب المسيلة، وبلزمة ورئيس لهيعة، وصاحب سريف وإجانة ولطانة وارسلوا لهم في إنكجان أن سلموه فرفضوا. فجاءوه وهموا باغتياله فهزمهم[2]. وهاجر الشيعي إلى تازورث وهناك عظم له الأمر وبدأ في ثوراته بدعم من بطون كغسان وبجاية و لهيعة، وحقق وحقق أولى انتصاراته هناك بعد أن هزم قبائل كتامة المعارضة بقيادة فتح بن يحي، مستعينا بقبائل لطانة وزعمائهم، مثل فحل بن نوح، لكن بعد قدوم جيش الأغالبة بقيادة أبي الخوال ابن الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، انهزم الشيعي في ملوسة وفر إلى إيكجان حيث أسس **"دار الهجرة"**[3]، وبدأ منها ثورته بعد ما استقام له الأمر. ودعمه هذه المرة كان أوسع، إذ نظمت قبائل عجسية وزواوة وكتامة، وهزم قوات الأغالبة، وبعد مقتل الأمير ابراهيم بن أحمد ووالده أبي العباس تولى زيادة الله الحكم وبقاله لأبي الخوال انهارت مقاومة الأغالبة، واشتدت نفوذ الشيعي[4].

وكما ذكرنا آنفا، فقد استطاع الشيعي أن يسقط عواصم الدول الإباضية والعلوية والصفرية في المغرب الأقصى، وصار المغرب الاسلامي بأكمله تحت سلطته، ثم بعث إلى المهدي بالقدوم[*] إلى سجلماسة حيث أسر وحرره الشيعي ثم قامت الدولة العبيدية وأعلن الحكم سنة 296 هـ في رقادة[5].

بعد استقرار سلطة عبيد الله المهدي بأفريقية بدأ في التخلص من نفوذ أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. وقد حاول أبو العباس تنبيه أخيه أبي عبد الله إلى نوايا المهدي لكن دون جدوى، ولما تأكد المهدي من قوه تأثير الشيعي وخشي منافسته بسبب الولاء من كتامة لا بوعيه الله الشيعي. فقد أرسل إلى شيوخ كتامة من يفسد رأيهم فيه، واتهم أنه

(1) محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص-ص -166-167.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص، 42.

(3) نفسه، ج4، ص- 43-44.

(4) نفسه، ج4، ص44.

(*) عبد الله المهدي بن الحبيب بن جعفر، "يدعي النسب الى علي بن أبي طالب، ومن ذرية فاطمة، بنت الرسول ﷺ، خرج من الشام متخفيا في زي التجار بعد أن اشتد عليه الطلب من العباسيين، ورافقه ابنه أبو القاسم وخاصته، كان ينوي التوجه لليمن لكن سوء سيرة على بن الفضل صرفه إلى المغرب، عبر صصر ثم طرابلس متجها نحو كتامة، لكن عند سجلماسة قبض عليه اليسع بن مدرار بامر من زيادة الله فاعتقله مدة حتى حرره أبو عبد الله الشيعي بعد ان سيطر على المغرب، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص-ص 44-46، ابن أبي زكرياء، المصدر السابق، ص164.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص، 44.

ليس الإمام المنتظر، مما مهد لقتله[1]، فاستدعي إلى القصر مع أخيه فأمر عروبة بن يوسف بقتلهما، فقتلا طعنا سنة 298هـ، فأحدث هذا فتنة داخل كتامة[2].

حيث كانت حتى ذلك الحين الركيزة الأساس في مشروع الدولة العبيدية، إذ تمردت بمقتل أبو عبد الله الشيعي. حيث نصبوا طفلا وزعموا أنه المهدي وتنكروا لعبيد الله[3]، مما يكشف لنا عن انقسام داخلي قبلي-مذهبي، إذ رفضوا سياسة المهدي عبيد الله الشديدة، رد الفاطميون على هذا التمرد، حيث بعث المهدي ابنه أبو القاسم فحارب كتامة المتمردين وهزمهم وقتل الطفل[4]، مما يبرز عمق الشرخ الذي حدث بين الزعامة الفاطمية الجديدة وحليفتها كتامة.

أما على المستوى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى كان الصراع أكثر وضوحا، اصطدمت الفاطمية مع الأدارسة (العلويين) في فاس وتم إخضاعهم، ثم إزاحتهم بالكامل من المشهد، بفضل تعاون موسى بن أبي العافية المكناسي أنه قد قدم يحي بن ادريس صاحب فاس، وضم فاس إلى أعمال ابن أبي العافية، لكن سرعان ما تمرد أيضا وانحرف إلى الأمويين، فأوقع عليه الميسور كما ذكرنا سابقا[5]. وهذا ما يؤكد هشاشة التحالفات المبنية على المصلحة لا القناعة المذهبية.

وفي المقابل، اتسع نطاق المواجهة مع الإباضيين والصفرية في هوارة وتاهرت، فقد توجه لهم أبو القاسم غازيا. وحصر ملك الحسن بن أبي العبيش، فدك بلادهم و نقل زعمائهم، وهجر كثير منهم، ثم إنهم نصبوا مدن جديدة مثل المحمدية (المسيلة) لتكون حصون فاطمية أمام أي تمرد مستقبلي[6].

و من الواضح أنا المهدي كان واعيا لخطر هذا التعدد القبلي والمذهبي، فأنشأ مدينة المهدية كمعقل محصن لأهل بيته قائلا "بنيتها لتعتصم بعد الفواطم ساعة من نهار"[7]، مما يعكس شعورا دفينا بالخطر الدائم من الداخل لا الخارج فقط.

أما لقبال يرى أن الصراع كان ذا طابع مذهبي سياسي واضح اتخذ أشكالا متعددة: سعى كل طرف إلى إقصاء نفوذ الآخر من خلال تجنيد واستخدام العصبيات القبلية لخدمة مشروعه، وأن الطابع الهجومي كان غالبا من الفاطميين، وكما أشار إلى أن الصراع كان أيضا مع الأمويين في الأندلس، وذلك أن ابن أبي العافية وغيره من الزعماء المحليين، مثلوا أدوات في هذا الصراع، حيث وظفهم الأمويون لاحتواء المد الفاطمي، وفي المقابل، سعت السلطة الفاطمية إلى إخضاع القبائل التي تمردت مثل مكناسة، عبر الإغراء العسكري، ويظهر هذا "ومن خلال صراع الفاطميين والأمويين من أجل

(1) نفسه، ج4، ص، 48.
(2) ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص-ص 227-228.
(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص48
(4) نفسه، ج4، ص48.
(5) نفسه، ج 4، ص-ص 50-51.
(6) نفسه، ج4، ص49-50.
(7) نفسه، ج4، ص49.

السيادة العليا في المنطقة، ابتدأت فصوله الأولى منذ عهد عبيد الله إلى عهد الحاكم بأمر الله"، "وقد اتخذ كل فريق أسلحة حادة للنيل من خصمه"...[1]

وفي تقديري، فإن هذا الصراع لم يكن مذهبيا بحتا ولا قبليا خالصا، بل كانت فيه مصالح سياسية واضحة، استغلت فيه المذاهب والعصبيات القبلية كوسائل للسيطرة، ونلاحظ أيضا أنه من خلال ما ذكره ابن خلدون وابن عذارى أن كتامة لم تكن دائمة مطيعة. بل ثارت في بعض الأحيان، خاصة بعد قتل أبو عبد الله الشيعي، لكن فيما بعد استطاعت السيطرة عليها، فقد ظهر دور كتامة جليا فيما كانت تقوم به من فتوح وقمع للثورات المتمردة. وهذا كله يدعم ما ذكره موسى لقبال من أن الصراع كان ذا أبعاد متعددة ولم يكن مجرد نزاع مذهبي، بل تداخل فيه المذهب بالسياسة والقبيلة في آن واحد.

و لم يقتصر الصراع فقط داخل المغرب، بل كان في الشرق "الفاطمي العباسي" مذهبيا سياسيا بامتياز، فقد بدأ في عهد عبيد الله المهدي، وواصل ابنه أبو القاسم المحاولات[2] ثم المنصور، إلى تحقق الفتح أو الاستيلاء على مصر في عهد المعز لدين الله.

فقد دخل أبو قاسم مصر مرتين، واصطدم مع الجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم، وعاد إلى المغرب، والثانية سنة 304هـ، ثم في ولايته بعث عساكر وملك الاسكندرية ولكن أعادته عساكر الاخشيد[3]، ثم إن المعز لدين الله استقام أمره في المغرب فجعل يفكر في فتح مصر، فحفر الآبار في برقة لطريقه إلى مصر، ودخلها سنة 359هـ، وصلى في جامع طولون وأمر بإضافة حي على خير العمل في الأذان[4].

لكن قبل خروج الشيعة من المغرب كانت الأوضاع لا تعرف الاستقرار. فقد زادت حدة الصراعات القبلية خاصة المذهبية وخاصة في عهد المنصور، إذ ظهرت عدة ثورات مثل ثورة أبو زيد مخلد بن كيداد[*]، فبعد وفاة القائم استغل النكاري الفرصة وهاجم مدينة سوسة، وحاصر القيروان، وأضرم النار في معسكر المنصور، مما اضطره للفرار، وتعاقبت الهزائم والانتصارات، حتى وقعت معركة في جبال كتامة وهزم أبو زيد واستمرت مطاردته، ثم اسر وعذّب وقتل[5].

وأيضا ضمن هذا الصراع فقد ساد الصراع المالكية والشيعة، نتيجة السياسات التعسفية التي مارستها الشيعة الفاطمية، إذ يرى موسى لقبال أن الصراع كان بالنسبة للمالكية عصر محنه وشهداء، "ومن ملاحظة أقوال شيوخ المالكية

(1) موسى لقبال، المرجع السابق، ص377.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص49.

(3) نفسه، ج4، ص52.

(4) نفسه، ج4، ص61.

(*) مخلد بن كيداد: هو أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، أظهر مذهبه ونزل بجبل الأوراس يدعو إلى مذهبه ويزعم الحق له، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل إفريقية، وهو أحد أئمة الإباضية النكارية. انظر ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص308.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص-ص 55-56.

تجاه الدولة الفاطمية يتضح أن وجهة نظرهم في العهد الشيعي... عصر شهداء المالكية وعصر المحنة"[1]، حيث واجه فقهاؤهم أبشع صنوف التعذيب والقتل كان بسبب تمسّكهم بمذهبهم ورفضهم التشيّع. "ومن ثم نلاحظ أن شيوخ المالكية، رغم ما نزل بهم من أنواع العذاب والتنكيل....، كما يُشير إلى أن هذه المواجهة الفكرية والروحية اتخذت طابعًا جهاديًا لدى بعض المتطرفين من المالكية، الذين رأوا أن "الخروج على الفاطميين أفضل من الرباط في النُفور [2]".

وهكذا، فإن خروج الفاطميين من المغرب نحو المشرق لم يكن انقطاعًا عن الإقليم المغاربي تامًا، بل تركوا من خلفهم سلالة الزيريين لتأمين استمرار نفوذهم العقائدي والسياسي. وقد كان بروز قبيلة صنهاجة، ممثلة في أميرها زيري بن مناد، ذا دور حاسم في هذا السياق، إذ لم يقتصر على الدور السياسي، بل قدمت الدعم العسكري. وبرز بوضوح في مواجهة النكار[3]، مما يبرهن على أن دعم صنهاجة للدعوة لم يكن بدافع ديني فحسب، بل كان أداة لتحقيق مكاسب سياسية.

وبالرغم من حدة الصراعات المذهبية والسياسية والقبلية التي نشبت بين الدول، أو في داخلها، فإن كل واحدة منها كانت تتمتع بقدر من القوة والازدهار، انعكس أساسًا في النشاط الاقتصادي الذي اعتمدت عليه. وقد مكنها هذا الأساس من الحفاظ على تماسكها الداخلي، واستمرار التواصل بين أجزائها. وعلى هذا الأساس، أمكن لها ترسيخ وجودها، رغم ما شاب تلك المرحلة من اضطرابات. وهذا ما سأبرزه في الفصل التالي.

(1) موسى لقبال، المرجع السابق ، ص422.

(2) موسى لقبال، المرجع السابق، ص .422

(3) ابن خلدون، ج4، ص ص 57،59،58.

الفصل الثالث:

الدور الاقتصادي للجماعات الدينية

– المغرب الأوسط

1– النشاط الزراعي والرعوي في المغرب الأوسط

2– النشاط الصناعي والتجاري

1- النشاط الزراعي والرعوي في المغرب الأوسط:

1-1- النشاط الزراعي:

ومما لا خفاء فيه أن الدول والملل بالمغرب الأوسط، وإن شغلتها الفتن المذهبية والنزاعات القبلية، فإنها ما كانت لتستقيم لها شوكة ولا يثبت لها سلطان، لولا ما اعتمدت عليه من وجوه المعاش وطرائق الكسب.

فكان النشاط الاقتصادي ركنا متينا تستند إليه تلك الكيانات، به تقوم أحوالها، وبه يستجلب ولاء أتباعها وتحفظ هيبتها بين خصومها.

وقد اعتمدت الدولة الرستمية على النشاط الاقتصادي أساسا لمعاش أهلها، غير أن عهد الأئمة الأوائل تميز بالرخاء والقوة، إذ مثلت الزراعة آنذاك ركيزة ثابته يستقيم بها أمرهم، فقد ذكر ابن الصغير أن الدعم القادم من المشرق استغله عبد الرحمن بن رستم في النشاط الزراعي بعد أن أمر بتوزيعه على الفقراء والسلاح. "وأنه لما وصل المال، واشتروا للقوم الكراع والسلاح... ثم شرعوا في العمارات والبناء وإحياء الأموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر..."[1].

إذ يذكر الوسياني أنه لم تكن هناك أسرة ولها واحة إلا وكانت تمتلك نخيلات تمثل مورد رزق خاص، "لا شك أن المحيط يغلب عليه الطابع الزراعي... الكل يهتم بغرسها، لأنها المورد الأساسي لرزقه، والأمن الغذائي له ولأسرته"[2].

ومن خلال ما أورده ابن الصغير في شأن استغلال الأموال الوافدة من المشرق وما ذكره الوسياني من استغلال الناس للأراضي حتى في ورجلان، يظهر أن وصف اليعقوبي والبكري في أرض تاهرت والأراضي للدولة الرستمية أنها كانت ذات زرع وفير، ومياه شرب كثيرة، وثمار طيبة وطعمها ما عرف في سائر الأفاق، وكما أن مناخها شديد البرودة، كثير الغيوم، يتساقط فيه الثلج، "ونهر آخر يجرى من عيون تسمى: ناتش، و من تاتش شرب أهلها وبساتينها، وهو في شرقيها... وفيها جميع الثمار، سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا...، ... وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج..."[3].

وهذا ما رآه فيها اليعقوبي أثناء رحلته إليها في القرن الثالث الهجري، أنها ذات زرع وثمار وأشجار وعمارات[4].

(1) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص 31.
(2) الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص 188.
(3) البكري، المصدر السابق، ج2، ص248.
(4) اليعقوبي، المصدر السابق، ص195.

ومن خلال هذه الشهادات المستشفة من المصادر، يتضع ازدهار الزراعة وخاصة الحبوب، فقد ذكر البكري في وصف تيهرت أن بابا من أبوابها كان بالمطاحن، "ومدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب: ...، وباب المطاحن..."[1]، وهو ما دل على كثرة الحبوب ووفرتها. ثم أشار الإدريسي إلى ما كان يُصَدَر إلى السودان من فواكه رطبة وثمور من ورجلان والزاب، "ولبس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من الثمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء،..."[2]، وهو ما يعكس نشاطاً تجاريا متصلا بالإنتاج الزراعي. كما بين ابن الصغير حسن تصرف الأئمة وخاصة عبد الرحمن، أتاح استغلال المال في الزراعة، من خلال توزيعه على الفقراء الذين باشروا الغرس والزرع واستغلال الأراضي كما ذكرنا سابقا. وأضاف الوسياني أن زرع الحبوب في تيهرت كان يكفي الناس ويترك ما يلتقط اللقاطون وترعى المواشي، "وذكر أنه قدم تاهرت، وعادته إذا حصد الناس زرعهم، ولقط اللقاطون السنابل، ورعوا مواشيهم وعقبهم أبو مرداس فيلقط نفقة سنة، لأن ذلك متروك"[3]، فنص الوسياني دل على وفرة الزرع والحبوب ما يكفي الناس والمواشي.

وفي الاخير، يؤكد بحاز إبراهيم أن هذا النشاط الزراعي مثل دعامة أساسية للحياة الاقتصادية للدولة الرستمية، مشيرا إلى أن المصادر الإباضية لا تقدم تفاصيل عن نظام ملكية الأرض أو طبيعة الممتلكات الزراعية، غير أن المرجح أن الملكية الخاصة أو العائلية كانت هي السائدة بحكم طبيعة الجغرافيا الضيق الوعرة، ولغياب أي اشارة لوجود تعاون جماعي في استغلال الأراضي[4].

ويبدو هذا الرأي وجيها، إذ إن مراجعة النصوص الإباضية تكشف فعلا خلوها من الإشارة إلى مثل هذا الجانب المهم من نظام الأراضي الذي عرف قبل وبعد الفتح، لذا هذا الأمر البالغ الأهمية لا يمكن أن تغفله المصادر الإباضية.

كما أن الأئمة الرستميين دعموا هذا المجال خاصة في عهد عبد الرحمن حيث يذكر ابن الصغير أن الوفد القادم من المشرق لإعانة الدولة وجد القصور والبساتين قائمة للخواص والعوام على حد سواء. "ثم توجهت نحو عبد الرحمن فوجدوا الأمور قد تبدلت، وأحوال المدينة والأشياء قد حالت، وذلك أنهم نظروا إلى القصور قد بنيت وإلى البساتين قد غرست وإلى الأرماد قد نصبت"[5].

(1) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص248.
(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص20.
(3) الوسباني، المصدر السايق، ج1، ص259.
(4) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص-ص155-156.
(5) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص33.

أما العلويين والعبيديين، فقد اشتركوا بدورهم في نفس المقومات الزراعية التي تميز بها المغرب الأوسط، إذ اعتمدوا على استغلال الأراضي الخصبة الممتدة بمحاذاة الأودية والسهول والمناطق المتاخمة للمناطق الساحلية.

فقد أوضح ذلك كل من اليعقوبي والبكري في وصف مناطق ملكهم، إذ يذكر اليعقوبي، على سبيل المثال أن هاز وإقليم متيجة، والمدينة الخضراء، والمناطق التي افترق عليها أبناء سليمان أنها ذات زرع وعمارة ومعاش[1].

وقد وسّع البكري هذا الوصف بتفصيل أدق، فذكر تلمسان وما يجاورها من أراضٍ تعود لملك بني سليمان وبني إدريس، مشيراً إلى خصوبتها، فيقول إنها في سفح جبل شجرة الجوز، وأنها كثيرة الثمار، "وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز... وأن عليها طواحين"[2].

وأيضا مثله في مناطق بني إدريس في المغرب الأقصى، يذكر ابن أبي زرع أن: "كانت وليلي متوسطة الخصوبة كثيرة المياه والغروس والزيتون"[3]، ومثلهم في ذلك الفاطميون، فقد عرفت الزراعة في مناطق سلطانهم ازدهاراً ملحوظاً، كما أشارت أوصاف البكري واليعقوبي إلى أن أراضيهم كانت ذات زرع وثمار وعمارة ومياه[4].

وهكذا، فإن ما ذكر عن العلويين والإدريسيين يصدق أيضاً على الفاطميين في مجال الزراعة، إذ يذكر الإدريسي أن زراعتهم كانت في نواحيها نباتات وحدائق وفواكه عامة ورخيصة، وبها من الثمر والزروع والضياع والزيتون[5].

الثروة المائية

يصف الجغرافيون، منهم اليعقوبي والبكري والإدريسي، أن بلاد المغرب الأوسط كانت عامرة بالأنهار والأودية، حيث تشكل هذه الموارد المائية شرايين حيوية ممتدة عبر السهول والجبال. وأسهمت في ازدهار النشاط الزراعي وتوفير موارد العيش. إذ يذكر اليعقوبي "وهذا البلد كله عامر كثير الأشجار والثمار وهم في جبال وعيون جارية..."[6]، هذه الموارد المائية تنتشر حول مناطق المغرب الأوسط، ويظهر ذلك في أوصاف البكري والإدريسي، "ويذكر أن مدينة أشير على نهر...، وكذلك تيهرت على نهر يأتيها من جهة القبلة...، ويصف كذلك تلمسان ومدينة العلوية أنها على نهر وداخلها عيون..."[7]، ويضيف الإدريسي أنه ورد أن أنهار المغرب الأوسط تواجدت بها أسماك، كنهر المسيلة، إذ هي على

(1) اليعقوبي، المصدر السابق، ص-ص، 191-192.
(2) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص-ص، 259-260.
(3) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص19
(4)اليعقوبي، المصدر السابق، ص190. و البكري، المصدر السابق، ج 2، ص-ص، 244-245.
(5) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 279.
(6) اليعقوبي، المصدر السابق، ص
(7) البكري، المسالك والممالك، المصدر السابق، ج 2، ص-ص 247-254.

على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الأرض... وفيه سمك صغير... وأهل المسيلة يفتخرون به... ويضيف أن المسيلة بها ماء جارية... وكثيرة المياه"[1].

ومنها يتضح أن هذه الثروة شكلت مورداً مهماً ورئيساً ساهم في ازدهار النشاط الزراعي وكذا العمراني، وأصبحت مورداً مهماً للغذاء ورافداً من روافد الحياة اليومية للقبائل.

ومجمل القول، فإن الشهادات المستقاة تفيد بأن الثروة الزراعية في المغرب الأوسط كانت جيدة ومزدهرة، بالنظر إلى ما امتازت به المنطقة من اعتدال المناخ وخصوبة التربة، وقد اتضح ذلك من خلال عنصرين رئيسين:

أولا: الشبكة الزراعية: التي ظهرت بوضوح في المناطق الساحلية التي كانت للعلويين، ثم الشيعة من بعدهم، مثل إقليم متيجة ومناطق ملوية، تلمسان.

أما المناطق الداخلية وما بين الشمال والصحراء فقد كانت للمرابطين، حيث ازدهرت فيها الزراعة لتلبية الإنتاج المحلي، كما وُجِّه فائضها إلى التجارة والتصدير.

ثانيا: الشبكة المائية: إذ يلاحظ من خلال المصادر وخاصة اليعقوبي والبكري أن العاصمة، وكذا كل إقليم، كانت تحف بها الأنهار أو الأودية، فأتاحت تنوع الزراعة وتكاثرها بحسب المواطن.

ومن خلال هذه المعطيات يتضح أن الزراعة لم تكن مجرد نشاط معيشي محدود بل شكلت أساسا مهما لاستقرار العمران وديمومة الاقتصاد، وهو ما يستدعي التوقف عند بعض الآراء التحليلية التي أبرزت أبعاد هذا الجانب.

فقد وُضعت الفلاحة في صدارة الأنشطة الاقتصادية، لما لها من دور جوهري في تلبية حاجات العمران المتزايد وتوفير الفوائض للتصدير. كما ساعدت طبيعة بلاد المغرب الأوسط، بما امتازت به من خصوبة التربة واعتدال المناخ، على ازدهار هذا القطاع، ومع تزايد الطلب، اضطر الفلاحون إلى اعتماد وسائل أكثر تطورا من تحسين أساليب الري وتسميد التربة، إلى استعمال أدوات جديدة لتسويتها وزيادة إنتاجيتها[(2)]، وهو ما مثّل تداخلا بين الزراعة والصناعة، ومهّد لانتعاش الأسواق وازدهار الحركة التجارية.

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص،ص 254، 263.

(2)جودة، عبد الكريم يوسف، *الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين* (9-10)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1411هـ/ 1992، ص-ص 26-27.

ب- الرعي وتربية الماشية:

إن الغالب في المغرب الإسلامي ككل، ومن حسبما أورده ابن خلدون أنه موطن بدائي، يعتمد على تربية الماشية والزراعة، وذلك لطبيعة البلاد، وقد وصف أهله بأنهم يتخذون بيوتهم من الحجارة والطين أو من الخوص والشجر أو الشعر أو الوبر، ويقوم معاشهم أساسا على الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب.

أما معاش المستضعفين فيقوم على الفلح وتربية دوابّهم السائمة، في حين يقوم على المعتزين أهل الانتجاع والاصعان على نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة[1].

ومما ورد في المصادر حول النشاط الزراعي وتوزيع أماكن الغرس وكثرة الغابات: أن الرعي كان حاضرا بالضرورة، إذ يذكر الإدريسي أن تاهرت كان أكثر نتاجها من البراذين والخيل، وأن البقر والأغنام فيها كثيرة جدا، كما عرفت مناطق الفاطميين والعلويين بكثرة مواشيهم من الأغنام والبغال والرمك... ويشير كذلك إلى وفرة العسل في تاهرت[2]، نظرا لاشتهارها بتربية النحل وما حوته مزارعها من الورود والتي شكلت مصدرا رئيسا لرحيق النحل[3].

ومن هذا عرف قطاع الرعي في بلاد المغرب خلال العصور الوسطى تطورا ملحوظا، إذ أصبحت المراعي، التي كانت في بعض المناطق مهددة كما في المغرب الأقصى عمال في عهد بني أمية، قادرة على إنتاج حيواني وفير، وهو ما تشهد عليه أسواق أغماث، التي كان يذبح فيها مائة ثور وألف شاة أسبوعيًا، فضلًا عن وفرة الألبان ومشتقاتها، وقد نجم عن هذا الازدهار الزراعي والعمراني تحول اجتماعي مهم تمثل في استقرار كثير من القبائل البدوية، وانتقالها من حياة الظعن والانتجاع إلى حياة الاستقرار، خاصة بعد اتباع الأدارسة سياسة جبائية عادلة نابعة من أحكام الشريعة[4]. ولعل هذه السياسة قد شملت المناطق التي كانت تحت حكمهم في بلاد المغرب الأوسط.

وفي المغرب الأوسط كذلك كانت تربية الماشية تسير جنبا إلى جنب مع الزراعة، حيث كانت المناطق الزراعية في الوقت نفسه مراعٍ طبيعية، يجمع المزارع بين محصوله الزراعي ومنتوجه الحيواني باعتبارهما نشاطًا واحدًا متكاملًا. وتشير

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 116.
(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص،ص 256، 294.
(3) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص 160.
(4) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص79.

الدراسات إلى أن الجزائر كانت في فترات من تاريخها مرتعًا لمختلف الحيوانات، وعلى رأسها الغنم والخيل والحمير، وهو ما شجعته طبيعة البلاد الغابية[1].

وقد أجمع الجغرافيون على أن البلاد كانت زراعية رعوية، وقد أكد اليعقوبي ذلك بقوله المتكرر في وصف المناطق: "وهو بلد زرع وضرعٍ"[2].

ويلاحظ من مجمل الروايات الجغرافية وكذا التاريخية، أن النشاط الرعوي وتربية المواشي كان جزءًا أصيلًا من البنية الاقتصادية، يسير في تلازم مع الزراعة. فقد أبرزت المصادر أوضاع المراعي وإمكاناتها، وما ترتب عليها من وفرة في الإنتاج الحيواني من ماشية وخيل وبغال وأنعام، إضافة إلى وفرة المنتوجات من ألبان وعسل وجلود وصوف. كما أظهرت أن هذا الازدهار أسهم في تغير اجتماعي تمثل في استقرار بعض القبائل البدوية، وهو تحول ارتبط أحيانًا بسياسات السلطة كما في العهد الإدريسي. وتجتمع الشهادات على أن طبيعة البلاد، من غابات وأراضٍ مفتوحة، قد هيأت بيئة مناسبة لتكامل الزراعة والرعي، وهو ما مثل سمة أساسية في المغرب الأوسط.

2- النشاط الصناعي والتجاري:

وبناءً على ذلك، فإن الحديث عن الزراعة يقودنا بالضرورة إلى ما ارتبط بها من صناعة وتجارة، إذ لا يمكن فصل هذه الجوانب بعضها عن بعض، ومن هنا يقتضي الأمر الوقوف عند ملامح النشاط الصناعي والتجاري عند الرستميين، والعلويين، والفاطميين، لما كان له أثر بارز في دفع عجلة الاقتصاد وإحياء الحركة العمرانية في المغرب الأوسط.

فقد برزت الصناعة في الدولة الرستمية بشكل ملحوظ، ويظهر ذلك من تطور العاصمة، رغم أن المصادر لا تشير إلى النشاط الصناعي إلا إشارات بسيطة، حسب ما أورده بحاز، مما يجعل تناول هذا المظهر من الاقتصاد ضيقا ومحصورًا بما ورد في تلك النصوص[3].

إذ يلاحظ من خلال هذه الإشارات أن هذا الجانب كان قائمًا ومقترنًا بالنشاط الزراعي. ويتجلى ذلك في ذكر المطاحن التي أشار إليها البكري "... وباب المطاحن..."[4]، وهي دلالة على وفرة الوسائل المستعملة في طحن الحبوب، إضافةً إلى عمال الحرف الذين يعملون عليها، وكذلك الأدوات الزراعية مثل الفؤوس والمناجل، مما يدل على وجود صناعات لهذه الآلات وتداولها بين الناس واستعمالها في الزراعة.

(1) بحاز إبراهيم، المرجع السابق، ص-ص 158-159.
(2) اليعقوبي، المصدر السابق، ص-ص 191-195.
(3) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص 164.
(4) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 248.

ويفيد كذلك نص ابن الصغير أن الإمام عبد الرحمن بن رستم خام بعض الصوف والأكسية، وهو ما يدل على صناعة النسيج في تيهرت، "فاشترى منه أكسية صوف وجبايا صوف وفراء[1]، هذه الصناعة التي أشار إليها، عبد الكريم يوسف، إلى أن الرستميين اهتموا بها لعلاقتها المباشرة بالتجارة. ولم يشر المؤرخون إلى صناعة النسيج في العهد الرستمي، والإمارات العلوية، ولكن من المحتمل أنهم اهتموا بها لعلاقة الصناعة بالتجارة[2].

وكما أنه قد انتشرت في العهد الرستمي حرفة الحدادة، ويظهر ذلك من خلال نص ابن الصغير، إذ يذكر أنه لما استقام أمر أفلح بنى القصور واتخذ بابًا من حديد "وشَمُخَ في ملكه، وابتنى القصور واتخذ بابًا من الحديد..."[3]، وكما جاء في نفس المصدر: "وأنتهى الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق"[4]. هذا النص قد فسره بجاز إبراهيم بأن هذا الاستيطان والتمركز الواسع دليل على أن تاهرت تحولت إلى مركز اقتصادي مزدهر، اجتمع فيه الحرفيون والصناع[5]، مما عزز حركتها التجارية والصناعية، وساهم في تلبية حاجات السكان، ورفع من مكانة الدولة بازدهار مختلف الحرف الرستمية.

وفي تقديري، فإن هذا النص يكشف أيضًا أن المدينة لم تكن جاذبة بفعل الأمن والرخاء فقط، بل بفضل قدرتها على توفير فرص عمل للوافدين من خلال تنوع النشاطات الاقتصادية، الأمر الذي جعلها أشبه بسوق إقليمي تستقطب أرباب الحرف والصنائع، وهو ما أكسبها استقلالًا اقتصاديًا بارزًا في عهدها.

وفي السياق نفسه، ورد أن الدولة الرستمية عرفت حركة عمرانية متميزة حيث أنشئت الدور، مما يعكس تطور حرفة البناء وازدهارها في تلك المرحلة.

وتاتي هذه الإشارة، إلى جانب ما سبق ذكره حول النسيج والحدادة، لتدل على حيوية النشاط الصناعي والعمراني بالمدينة.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الصغير يعد المصدر الوحيد الذي قدم إشارات حول الصناعات في الدولة الرستمية، وهو ما يبرز قيمة روايته في هذا الجانب.

(1) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 36.
(2) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 90.
(3) ابن الصغير، *المصدر السابق*، ص 51.
(4) نفسه، ص 51.
(5) إبراهيم بجاز، المرجع السابق، ص 165.

إذ وضح كثرة العمارة والفن فيها، "وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة"، "والبلد زائدة عمارتها في ذلك كله"[1].

ولم تكن هذه المهنة وهذه الحرفة مقتصرة على الدولة الرستمية، فقد كانت حركة عمرانية واسعة في جميع المغرب الإسلامي إذ عرفت كل دولة بعمرانها، فجودت عبد الكريم يوسف يرى أن البناء قد تزايد بسبب اتساع الحركة العمرانية وتطورها. وأنها كانت من أهم المهن إلى جانب الحراثة والصباغة وتتم بتضافر عدد من المهنيين: الحجار، وصناع القرميد والطوب...[2]

وخلاصة القول، كما يذهب بحاز إبراهيم، أن الصناعة في العهد الرستمي رغم بساطتها وبداوتها أحيانا، كانت متماشية مع النشاط الزراعي، ومرتبطة به في معظم الأحيان، فلبّت بذلك حاجات السكان الأساسية.

ولم يكن ازدهارها إذا بأقل من الانتعاش الزراعي، غير أن صمت المصادر المتوفرة حال دون تلمس معالمها كاملة، فلم يكشف منها إلا القليل بالاستنتاج والتخمين[3]. ويؤكد الاطلاع على جملة من المصادر والمراجع صحة هذا الطرح، إذ لم يرد إلا القدر اليسير المتعلق بالصناعة، وهو ما يبرز محدودية المعطيات المتاحة، ويعكس الصعوبات التي تواجه الباحث في إعادة تركيب صورة متكاملة لهذا الجانب.

ومثلما هو الحال في الصناعة عند الرستميين كذلك عند العلويين والعبيديين، إذ لوحظ أن ازدهار الزراعة كان عاملاً مباشراً في دفع تطور الصناعة. فقد انتشرت في هذه الفترة المطاحن ومعاصر الزيت، حيث يذكر الإدريسي أن أسواق مناطق العبيدية كانت تعرض فيها كميات معتبرة من الزيت، كما يذكر أن أسواق المهدية كانت تعرض فيها كميات معتبرة منه أيضًا. كما تحدث عن وفرة الحنطة في المغرب الأوسط، "وجل غلاتها الزيتون والزيت، وبها منه ما ليس يوجد بغيرها مثله..."، "ثم إلى المسيلة... ولها مزارع قطن وقمح وشعير..."[4]، وجل وصفه للمغرب الأوسط يذكر كثرة المزارع والثمار والحبوب والزيتون والزيت، وهو ما يدل على كثرة استعمال المطاحن ومعاصر الزيتون.

أما صناعة النسيج والحدادة، فقد كانت منتشرة، غير أنها شهدت في هذه الفترة تنافسًا بين الصناع في التفنن والإتقان والجودة، كما أشار إلى ذلك جودت عبد الكريم يوسف[5]. ويشير البكري إلى حرفة الحدادة في وصف صنع

(1) ابن الصغير، المصدر السابق، ص،ص 36، 51.
(2) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 11.
(3) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص 173.
(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص، ص 254، 282.
(5) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 90.

باب في المهدية، "وجميع بنيانها بالصخر، وللمدينة باب من حديد يزن كل باب ألف قنطار... وفي كل مسمار من مساميرها ستة أرطال..."[1]، في وصفه هذا يتضح حسن هذه الصناعة وتطورها.

ومن هنا يتضح أن النشاط الاقتصادي في الدولة العلوية والعبيدية لم يكن مختلفًا عن نظيره في الدولة الرستمية، بل كان امتدادًا له من حيث تنوع الصناعات وتلبية حاجات المجتمع.

وإلى جانب كل هذه الصناعات يذكر محمود إسماعيل نشاطًا اقتصاديًا للأدارسة متمثلًا في استغلال المناجم، التي احتكر المخزن بعضها ـ كمناجم الفضة ومناجم النحاس ـ وأوكل بعضها إلى الأفراد والجماعات لاستغلالها مقابل ركاز يقدر بخمس الإنتاج حسب الشريعة. وقد أدى هذا إلى هجرة الكثيرين من الشرق والأندلس، كما أدى كذلك إلى تحسين وسائل الإنتاج[2].

أما التجارة فكانت على نوعين: داخلية وخارجية.

فأما الداخلية فقد مثلتها الأسواق القائمة ضمن العواصم، إذ لا يتصور قيام مدينة دون سوق. وقد وصف الإدريسي والبكري أسواق مدن المغرب الأوسط من تلمسان ووهران وتنس وتاهرت وما جاورهم، بأنها عامرة بالتجارات المتعددة، ويقصدها التجار من كل مكان، والبضائع فيها كثيرة. "إلى مدينة المسيلة... أسواق وحمامات...، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وعندهم القطن... ويسكن قسنطينة قبائل شتى...، وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة... وبتيهرت أسواق عامرة..."[3].

وذكر الإدريسي بضائع هذه الأسواق وقال إن أكثر نتاج تاهرت كان من العسل والسمن والفواكه والحبوب، وأن سائر خيراتها وافرة[4].

كما أشار إلى أن أسواق المسيلة عامرة، وفيها السمك الأحمر النادر الذي يعد فخرًا، ويجلب من نهر قريب، فضلًا عن وفرة اللحوم والقمح والشعير فيها. ووصف أيضًا تلمسان بأنها كانت ذات تجارة رائجة وتجارها كثر، وأن لحومها شحمية وفواكهها جيدة تباع في أسواقها[5].

(1) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 203.
(2) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص-ص 79-80.
(3) البكري، المصدر السابق، ص 239
(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص، ص 248، 254.
(5) نفسه، ج 1، ص 256.

كما خص بالذكر عدد من الجغرافيين أسماء أسواق مشهورة مثل سوق حمزة وإبراهيم وغيرها، مما يوضح لنا نشاط وازدهار هذه الأسواق.

كما أن التجارة الداخلية لم تقتصر على نشاط الأسواق فحسب، بل شملت أيضًا تبادلات اقتصادية بين مختلف الدول والمدن، فقد لوحظ مثلًا أن الرسميين كانت لهم صلات تجارية ونشاط اقتصادي مع تلمسان والقيروان وما جاورهم من حواضر، وهو ما يبرز جانبًا آخر من حيوية المبادلات الداخلية.

وقد أوضحت المصادر كالبكري والإدريسي أن هذه المبادلات اعتمدت على مسالك تجارية منتظمة، ربطت بين أبرز العواصم في المغرب الأوسط وما جاوره.

فالمسلك كان يربط تلمسان وتاهرت: من مدينة تلمسان إلى مدينة المسيلة إلى مدينة تاهرت[1].

كما أن تلمسان كانت لها تجارة مع سجلماسة، وكان مسلك العبور من:

تلمسان ⟵ فاس ⟵ صفروي ⟵ تادلة ⟵ أغمات ⟵ بني درعة ⟵ سجلماسة.[2]

وهناك مسلك آخر وهو أقل استعمالًا لكونه يمر عبر مفازة، وهو من تلمسان إلى تارو وجبل تامديت، ثم غايات وصدرات وجبل تيوي وفتات، فشِعب الصفا، لينتهي إلى تندلى وتَمْسِنَان، ثم إلى تقربت ومنها إلى سجلماسة[3].

وكذلك الحال بالنسبة لتاهرت، فقد ارتبطت بعلاقات تجارية نشطة مع القيروان، حيث شكل هذا الطريق أحد أهم المسالك التي وحدت المبادلات بين المغرب الأوسط وإفريقية.

وهي ثلاثة مسالك: الأول من تاهرت – سطيف – القيروان، وقد قُدِّر بتسعة عشر مرحلة، والثاني، تاهرت – قسطيلة – قفصة – القيروان، ومسافة بين تاهرت وقسطيلة خمسة عشر يوماً، وثلاث مراحل إلى قفصة وسبعة إلى القيروان، والثالث تاهرت – أشير – المسيلة – مجانة – القيروان. وهذه مسافته بين تاهرت والمسيلة عبر أشير ثمانية أيام، ومن المسيلة إلى مجانة والقيروان سبعة أيام، ويُعَدّ هذا الأقصر[4].

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 256.

(2) نفسه، ج 1، ص 249.

(3) نفسه، ج 1، ص 250.

(4) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص 189. انظر أيضاً: البكري، أبي عبيد، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، وهو جزء من كتاب *المسالك والممالك*، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 79.

ثم هناك طريق آخر ذكره البكري يربط القيروان وأرشقول وتاهرت، وهو: أرشقول – اسلن – إلى قصر ابن سنان، اسلن تاهرت – القيروان. وقد قُدِّرت المسافة من اسلن إلى تاهرت أربع مراحل، ومن تاهرت إلى القيروان تسعة عشرة مرحلة[1].

وبحسب هذه المسالك السالف ذكرها يظهر أن تاهرت خاصة، والمغرب الأوسط عامة، يُعرَف كمركز تجاري محوري، وأن تاهرت نقطة التقاء القوافل الكبرى، وساهمت بفعالية في تنشيط هذه المبادلات الاقتصادية[2].

وهناك مسلك آخر من تلمسان إلى سجلماسة وورجلان إذ ذكره البكري، "في الجنوب من تلمسان قلعة ابن جاهل، وهي قلعة منيعة...، وبها يتصل جبل تارف،... إلى مدينة تيزيل، وهي أول الصحراء، ومنها يُسافر إلى مدينة سجلماسة وإلى ورجلان[3].

وقد امتد هذا النشاط ليشمل مجالات أوسع عبر علاقات تجارية نشطة مع الأندلس وبلاد السودان، مما يؤكد انفتاح المغرب الأوسط على التجارة الخارجية في مختلف الاتجاهات.

وقد ذكر اليعقوبي أن طريق تيهرت إلى البحر يستغرق مسيرة ثلاث رحلات، ومنها إلى وادي شلف، ثم إلى جبل أنفيق، ثم إلى بلدة نفزة، ثم إلى البحر المالح، ومنه إلى بلد تدمير، بعد قطع اللج بين يوم وليلة[4].

وكانت القوافل تأتي إلى تيهرت من المغرب الأدنى، خاصة القيروان، ومن المغرب الأوسط من مدن تلمسان والمسيلة وأشير وأرشقول... لتتجه نحو الصحراء وبلاد السودان الغربي، مما جعل هذه المسالك التجارية التي تمر عبر المغرب الأوسط تمثل الربط الرئيسي للقوافل، وقد أسهمت تيهرت وورجلان بموقعهما الاستراتيجي في تنشيط الحركة التجارية بين مختلف أقاليم المغرب الكبير، وربط الشمال ببلاد السودان في الجنوب الغربي.

وقد تمثلت هذه المسالك في:

أولها: من تاهرت إلى سجلماسة، حيث مثلت نقطة التقاء القوافل الكبرى والتي تربطهم بالسودان:

من تاهرت إلى أوزكا ثلاث مراحل، ومن أوزكا إلى سجلماسة سبع مراحل[5].

(1) البكري، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية...*، المصدر السابق، ص 79.
(2) إبراهيم بجاز، المرجع السابق، ص 194.
(3) البكري، المسالك والممالك، المصدر السابق، ج 2، ص 260.
(4) اليعقوبي، المصدر السابق، ص، ص 192، 197.
(5) نفسه، ص، ص 192، 197.

ومن سجلماسة إلى تامدلت إحدى عشرة مرحلة، ثم إلى أودغشت أربعون مرحلة، ويعدها البكري أنها إحدى وخمسون مرحلة إجمالًا[1].

والبكري يذكر طريق ورجلان والقيروان والسودان في مسلك تادمكة ← ورجلان "أغرم أن يكامن"، وهذه يقول عنها مسيرة في الصحراء خمسين يوماً ← قسطيلية أربعة عشر يوماً ← والقيروان سبعة أيام[2].

والإدريسي منه طريق: غانة ← سلى[*] ← تكرو[**] ← برنسي ← أودغشت ← سجلماسة[3].

وطريق آخر بين المسيلة وورجلان إلى غانة، "ومن مدينة المسيلة إلى ورجلان اثنتا عشرة مرحلة كبار...، ومن ورجلان إلى غانة ثلاثون مرحلة"[4].

وذكرت المصادر الإباضية طريقًا يربط سجلماسة وورجلان، وقد سلكه أبو عبيد الله الشيعي المهدي من نوزر إلى ورجلان، ثم إلى سجلماسة[5].

وكانت صادرات المغرب الأوسط فقد كانت متنوعة بين المنتجات الزراعية والحيوانية والمصنوعات، فشملت: الحبوب بأنواعها، السفرجل، العسل، السمن، التين المجفف، الجوز، النباتات الطبية، إضافة إلى المرجان وعمود الخرط. كما صدّرت كميات من الغلال، والأغنام، والخيل، والجمال، واللَّمْط، وأقواس الزان، والقطوط الغالية، والجلود اللمط والجلود.

وقد وُجّهت هذه الصادرات إلى الأندلس وبلاد السودان، وفيما بينهما. ومما نُقل أيضًا إلى بلاد السودان: ثياب الصوف، والأكسية، والمصنوعات النحاسية، والزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، والعطور، والتوابل، وآلات الحديد[6]. إضافة إلى ما أشار إليه الإدريسي إلى بعض الفواكه الرطبة والتمر القادمة من ورجلان وبلاد الزاب[7].

(1) البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق، ج 2، ص 346.

(2) نفسه، *المغرب في ذكر إفريقية*، المصدر السابق، ص 182.

(*) سلى: مدينة على ضفة نهر النيل وبشماله وبها مجتمع السودان، الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص18

(**) التكرو: وهي في جنوب النيل وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر، ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة، الإدريسي، المصدر الابق، ج1، ص18

(3) الإدريسي، *المصدر السابق*، ج 1، ص-ص 18–19.

(4) نفسه، ج 1، ص 296.

(5) أبو زكرياء، *المصدر السابق*، ص-ص 164-165.

(6) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 215–248.

(7) الإدريسي، *المصدر السابق*، ج 1، ص 20.

وأيضًا الذبل من ظهور السلاحف لصنع الأمشاط، والعاج، وريش النعام، فضلًا عن الملح الذي كان يمثل تجارة بالغة الأهمية والذي يُستبدل بالذهب.

وفي المقابل، استورد التجار الذهب من بلاد السودان[1]، وقد شكّلت هذه التجارة صراعًا؛ فالفاطميون حاولوا بعد سقوط الرستميين الاستيلاء على ورجلان كونها مركزًا مهمًّا ومعبرًا إلى بلاد السودان في الصحراء، بعد الحصار سالف الذكر الذي أقاموه على المدينة وفشلوا فيه. فبحاز يرى أن دورها الاقتصادي هو الذي أعزى العبيديين لحصارها حين لجأ إليها يعقوب بن أفلح[2]. وقد فشلوا، ويقينًا الإباضية بورجلان بعد سقوط دولتهم، وأصبحت لهم العاصمة[3].

وقد كانت غانة الأشهر في الذهب حسب ما أورده الإدريسي والبكري، وأن أهلها يعولون على الذهب مقابل الملح الذي يستخدمونه لحفظ للسمك واللحوم للحفاظ عليها[4]، والعبيد السودان، وكذلك من الأندلس الصقاليين، وقد وقد ازدادت مع الفاطميين هذه التجارة لجلبهم للعبيد[5].

وبخصوص هذه المبادلات، يرى بحاز أن بضائع المغرب الإسلامي آنذاك تجعل من المرجح – وبشيء من التحفّظ – أنها كانت متقاربة مع بعض الاختلافات[6]. ومن خلال هذه المعطيات، يتضح أن النشاط التجاري للجماعات في المغرب الأوسط اتسم بالتنوع الكبير في الصادرات والواردات، مما يعكس اندماجه في شبكات تبادل واسعة امتدت إلى بلاد السودان، ويؤكد أن التشابه الكبير بين بضائع الأقاليم المغاربية، جعل الفصل بينها أمرًا معقدًا، مع بقاء الخصوصية لكل إقليم.

نتائج الازدهار التجاري في المغرب الأوسط:

ومن خلال ما تم عرضه يتضح أن بلاد المغرب الأوسط كانت تعيش حالة من الرخاء الاقتصادي والازدهار العمراني، تجسدت في وفرة الأموال واتساع الأنشطة الزراعية والرعوية والصناعية والتجارية. فقد ساهم الإنتاج الزراعي المتنوع والثروة الحيوانية الفنية في تنشيط التجارة، التي لم تقتصر على المبادلات الداخلية كما قلنا سابقا، بل امتدت إلى

(1) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص-ص ص 218–219، 220.
(2) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص 216.
(3) الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص-ص 95-96.
(4) الإدريسي، *المصدر السابق*، ج 1، ص 24.
(5) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 216.
(6) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص-ص 198-199.

التصدير نحو مناطق بعيدة، وهو ما يعكس انفتاح البلاد على محيطها الإقليمي والدولي. ويتضح ذلك من نشاط التجار في مدن مثل تاهرت، ورقلة والمصرية، حيث تشكلت هذه المراكز نقاط جذب للتجار والمستثمرين.

ويعود هذا الجذب بالأساس إلى حسن سير الأئمة الذين حافظوا على أموال المسلمين ووفروا الأمن والأمان، مما جعل عاصمتهم مركزا تجاريا نشطا. وقد أشار ابن الصغير إلى أن الوقود والرفاق كانت تنزل إليها باستمرار لممارسة التجارة وتأمين العيش الرغيد[1].

ويشهد أيضا ابن الصغير على ما خلفته تاهرت من تطور عمراني واقتصادي، إذ يشير إلى كثرة الأموال وأمن الساحات، "وكثرت الأموال بأيديهم...، وأمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطفت"[2]، مما يعكس الاستقرار الأمني الذي يشكل بدوره قاعدة أساسية لازدهار الاقتصاد.

وفي السياق نفسه يصف الإدريسي ورقلة وصفا لورجلان بأنها كانت موطنا لمياسير وتجار أغنياء يتجهون إلى بلاد السودان وغانة محملين بالبضائع، ويعودون منها بالتبر*. "فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء، يتجولون في بلاد السودان إلى غانة... فيخرجون منها بالتبر[3].

وهو ما يؤكد امتداد شبكة المبادلات التجارية إلى عمق إفريقيا. وبالتالي توفرت الأموال وسبل الرفاهية في بلاد المغرب الأوسط وكل المغرب الإسلامي.

فالإدريسي يصف ثرائها وحسنها، فيذكر أنها كانت "ذات حمامات جليلة وخانات كثيرة، وهي ذاتها حسنة الداخل والخارج، بهية المنظر وأهلها حسان... ويعمل بها من الثياب الحسنة الدقيقة الجيدة..."[4]، ومن هذا يتبين أثر النشاط التجاري والثراء البادي عليهم. ولهذا أصبحت أيضا فاعلا مهما في الحراك الاقتصادي للمنطقة. ويؤكد بجاز أن هذه الثروات لم تكن وليدة الصدفة أو حسن التجارة فقط، بل جاءت نتيجة السياسة المالية التي فرضتها الدولة العبيدية

(1) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 51.

(2) نفسه، ص 54.

(*) التبر، التِبر: الذَّهَب كله، وقيل هو من الذهب والفضة، وقيل أيضا التبر الفتات من الذهب والفضة قبل أن يُصاغا، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة. انظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص 416.

(3) الإدريسي، ج 1، ص-ص 281-282.

على السكان، "حتى أنهم خرجوا من بلاد المغرب الأوسط وهم مثقلون بالذهب[1]". وهذه دلالة واضحة على قوة النظام الجبائي وقدرته على تعبئة الموارد.

وفي إطار متصل يشير ابن خلدون إلى تجهيز السبل وحفر الآبار من برقة إلى مصر من طرف العبيديين لغزوها[2]، دليلا آخر على غنى الدولة وقدرتها المالية على تأمين طريق الغزو إلى مصر، بما يتطلبه ذلك من استثمارات ضخمة.

كما يورد محمود إسماعيل أن بعض القبائل البربرية استقرت وأخذت في ممارسة التجارة موالية لدولة الأدارسة ومقربة منها[3]، وهو ما ساعد على تعزيز الحركة الاقتصادية وترسيخ مكانة المغرب الأوسط بين جيرانه. وتكشف هذه الشواهد مجتمعة عن صورة متكاملة لمجتمع مزدهر اقتصاديا، يجمع بين الاستقرار الأمني والنشاط التجاري والتوسع العمراني، مما جعله نموذجا متميزا في تلك الحقبة التاريخية.

ومن خلال ما تقدم ذكره في المصادر يتضح أن ازدهار المغرب الأوسط في تلك الحقبة لم يكن نتيجة عامل واحد، بل ثمرة تداخل جملة من العوامل، على رأسها الاستقرار الأمني الذي وفرته السلطات، وتنوع القاعدة الإنتاجية في الزراعة والرعي والصناعة، واتساع شبكة المبادلات التجارية داخليا وخارجيا، كما يظهر أن المراكز الحضرية الكبرى مثل تاهرت وورجلان بعدها . والمهدية وتلمسان والمسيلة والزاب... لعبت دورا محوريا في هذا النشاط . إذ اجتذبت التجار والمستثمرين بفضل توفر الأمان وتطور البنية الاقتصادية، فضلا عن السياسات المالية التي عززت موارد الدولة. ويعكس هذا المشهد أن المغرب الأوسط استطاع أن يوظف موقعه الجغرافي واستقراره السياسي إلى حد ما، لتعزيز مكانته الاقتصادية بين محيطه الاقليمي والدولي، مما جعله مثالا بارزا لمجتمع متكامل الأركان في مجالات العمران والتجارة.

وعلى الرغم من هذا الازدهار الاقتصادي والحراك التجاري الواسع. فإن التجارة في المغرب الاوسط لم تكن بمنأى عن التحديات، فقد واجهت جملة من العراقيل التي حدت من انسياب المبادلات، وأعاقت ازدهارها بالكامل، وكان بعضها ذا الطبيعة أمنية، وأخرى مرتبطة بسياسات الدولة أو بطبيعة البنية الاجتماعية، ولعل أول عرقلة كانت قطع الطرق والسبل[4]، فقد شكلت هذه الظاهرة إحدى أبرز المعضلات الأمنية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط. رغم المساعي الحثيثة التي بذلتها الدول القائمة في ذلك الوقت لتأمين الطرق التجارية. فقد ساهم اتساع المسافات والطبيعة

(1) إبراهيم بجاز، المرجع السابق، ص-ص 185-186

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 61.

(3) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 79.

(4) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص-ص 199-200.

القبلية للمجتمع في استمرار هذه الظاهرة، اذ انخرط بعض أفراد القبائل وفي مقدمتهم زناتة في الغزو والسلم، مدفوعين أحيانا بالحرمان الاقتصادي.

وتشير الحوادث إلى استهداف قوافل تجارية أو بعثات رسمية، كما حدث مع بكر بن حماد الذي تعرض لهجوم أودى بحياة ابنه وأصابه بجروح ، وكما وقع لوفد أرسله أبو عبد الله الشيعي بأموال إلى المهدي في سجنه بسجلماسة[1]، ولم تفلح جهود الرستميين أو العبيديين من بعدهم في استئصال هذه الظاهرة في المغرب الأوسط. إذ ظل المفسدون يقطعون السبل، هذا الاضطراب الأمني لم يقتصر أثره على الأضرار المباشرة بالمارة، بل ولد مناخا من الخوف والفزع أعماق الحركة التجارية، خاصة مع تدخل السلطة نفسها في النشاط التجاري بأسلوب مجحف، إذ كان احتكار السلطان لبعض السلع أو انتزاعها بأثمان بخسة يحدث في السوق خللا ويقوض ازدهار التجارة الخارجية.

وعليه يمكن القول أن الخلل الأمني في المغرب الأوسط كان ظاهرة هيكلية متجذرة في البنية الجغرافية والاجتماعية، وليس مجرد أحداث متفرقة، فالولاءات القبلية واتساع المجال الترابي أضعفا قدرة السلطة المركزية على فرض الأمن المستدام. كما أن استمرار قطع الطرق حتى في ظل حملات عسكرية منظّمة بالاعتماد على الوسائل المتاحة آنذاك، ويبدو أن خطورة هذه الظاهرة تضاعفت حين اقترنت بالممارسات الاقتصادية المجحفة من قبل السلطان، حيث اجتمع عامل الخوف الأمني مع عامل الاحتكار السلطوي لشل جزء كبير من المبادلات التجارية، وهو ما جعل ازدهار التجارة الخارجية رهينا بمعالجة مزدوجة: أمنية واقتصادية في آن واحد.

ومن بين العراقيل كذلك الظروف الطبيعية المتقلبة مثل قسوة المناخ وانقلابه بين الحر وشدة البرودة ليلا ونهارا، وكثرة العواصف الرملية التي جعلت من السفر في الصحراء خطرا صعبا[2]. وإلى جانب هذا مشقة الطريق الصحراوي بطبيعته وبيئته المعقدة التي تجعل عبوره مشقة حقيقية للتجار، إضافة إلى ندرة الماء كاهم عائق، ما يستدعي تخطيطا دقيقا وتوقيتا ملائما للرحلة لتجنب المخاطر، وعلى حد قول بحاز: لا يتم تجاوز هذه العراقيل إلا بالاعتماد على خبرات محلية متوارثة لدى قبائل معينة كمسوفة التي امتلكت معرفة بالمياه ومواقعها، وكذلك بالمسالك التجارية في الصحراء[3]. وهذا يشير – في تقديرنا – أن نجاح التجارة الصحراوية كان مرهونا بشرط التوافق على الجمع بين المعرفة البيئية والانضباط في التنفيذ، لضمان سلامة القوافل والبضائع على حد سواء.

(1) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 200.
(2) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص-ص 220-221.
(3) نفسه، ص 221.

وإلى جانب تلك العراقيل الأمنية والطبيعية التي حدّت من انسياب المبادلات التجارية، برزت عوائق أخرى ذات طابع اقتصادي واجتماعي، في مقدمتها ضعف رؤوس الأموال لدى أغلب التجار، فقد شكلت هذه الظاهرة أحد أبرز العراقيل التي واجهت أيضا النشاط التجاري في المغرب الأوسط. إذ إن الانخراط في التجارة الخارجية لم يكن متاحا إلا لطبقة ضيقة من كبار الأثرياء القادرين على تحمل النفقات الباهظة المرتبطة بتجهيز القوافل نحو الأقاليم.

كما أن أهل الصناعات كانوا أيضا يعيشون في مستوى معيشي متوسط يقيهم الفقر دون أن يفتح أمامهم آفاق الثراء الكبير[1].

وقد انعكس هذا الوضع على النشاط التجاري العام، إذ لم يتمكن سوى الأثرياء القلائل من احتكار الطرق التجارية أو السيطرة التامة على المبادلات، وهو ما أفسح المجال أمام مشاركة تجار من مناطق أخرى، سواء من البصرة أو الكوفة أو بغداد إلى تاهرت.

ومنه ظهرت منافسة أجنبية في أسواق المغرب الأوسط. ومن بين الأسباب التي سمحت لهذه المنافسة بالظهور هو تشابه السلع الاقتصادية وتقاربها في المغرب الإسلامي، إذ كانت تقوم أساسا على الإنتاج الزراعي وبعض الصناعات المتماثلة. وهذا ما قلل من فرص التبادل التجاري الداخلي الواسع[2].

كما أن الصناعات المحلية كانت تجد نفسها أمام منافسة قوية من منتجات المشرق الإسلامي التي تميزت بتفوقها الفني وجودتها العالية.

وأيضا كانت العراقيل في بلاد المغرب الأوسط سياسية، فقد أدت النزاعات بين القوى السياسية الكبرى المتعاقبة على المنطقة من رستميين وأغالبة وفاطميين، وحتى الصراع الأموي[3] من الأندلس والفاطمي[4]، إلى تأثر طرق التجارة، وكذلك الحروب الداخلية والفتن والصراعات، خاصة التي كانت في الدولة الرستمية، متسببة في انقطاع خطوط التجارة واضطرابها، حيث كان التجار يخشون وقوعهم في جهات متضاربة.

إن هذه العوائق – الأمنية والطبيعية والبشرية على حد سواء – لم توقف النشاط التجاري كليا، لكنها جعلته صعبا ومضنيا، وفرضت على التجار التكيف معها عبر استراتيجيات خاصة، مما سمح للنشاط الاقتصادي ككل باستمرار المبادلات التجارية وقدرة التجار على تذليل الصعاب.

(1) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 201.
(2) نفسه، ص 202.
(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 23.
(4) ابن الصغير، المصدر السابق، ص،ص،ص 92، 95، 98.

فقد كان هذا التكيف دليلا على مرونة البنية الاقتصادية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، إذ لم يكن النشاط التجاري مجرد تبادل سلع، بل ممارسة حضارية أفرزت أنماطا من التعاون بين التجار والقبائل والسلطات الحاكمة. ومهما تعددت العراقيل، فإن إرادة الاستمرار وحيوية المبادلات التجارية برهنت على أن التجارة كانت شريان الحياة الاقتصادية، وعاملا أساسيا في ترسيخ مكانة المنطقة ضمن شبكات التبادل المغاربية والمتوسطية.

خاتمة

خاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن المغرب الأوسط لم يكن مجرد فضاء جغرافي تتقاطع فيه المذاهب، بل كان مسرحا حيا لتفاعل العصبيات القبلية مع الدعوة الدينية، وهو ما أفرز كيانات سياسية متباينة في قوتها وامتدادها، فالمشهد لم يقتصر على التباين العقدي فقط، بل كان ميدانا متشابكا تتلاقى فيه العصبيات القبلية مع الدعوة العقائدية. منتجا كيانات سياسية تنافست وأثرت على مسار التاريخ المغاربي.

كما برز البعد الاقتصادي من خلال النشاط الزراعي والصناعي والتجاري والاسواق الحيوية، ليشكل رافدا لا ينفصل عن السياسة في وحدة متماسكة.

يتبين من مجمل الوقائع أن مواضع تمركز الجماعات الدينية في المغرب لم تكن وليدة المصادفة، بل جاءت عن قصد وروية اتقاء لسطوة السلطان العباسي وغلبة المذاهب الأخرى. فقد اختارت هذه الجماعات مواضع حصينة ذات تحصينات موروثة وموارد كافية، مما جعلها معاقل منيعة وملاذا آمنا يضمن لها البقاء في وجه خصومها بما يشي بأهمية أثر العوامل الجغرافية، والتحصينية في رسم خرائط النفوذ السياسي والمذهبي بالمنطقة.

لقد تبين أن مصطلحي "آل" و"بنو" لم يكونا محض دلالة نسبية بل شكلا إطارا شرعيا يضفي على الجماعات الدينية بعدا سياسيا، مما يدعو إلى التفكير بعمق حول دور الأنساب في تشكيل السلطة والشرعية في المغرب الاسلامي، كما ظهر أن القبائل البربرية بما لها من امتداد تاريخي وعصبي، مثلك السند الاول للجماعات الدينية في المغرب الأوسط وأن النسب تحت هذين المصطلحين، لم يكن مجرد إطار اجتماعي، بل تحول إلى أداة سياسية لتثبيت الشرعية الدينية والمذهبية، كما أن القبائل قد انخرطت في المذاهب وفق عصبيتها وتاريخها ورغبتها في مشروع ديني و سياسي معين .

كان لدور الأئمة الأوائل، خاصة من خلال تبنيهم سياسة التسامح، مما ساهم في تحقيق نوع من الاستقرار النسبي في المنطقة. كانت تعاني التوترات المذهبية، وكانت النزاعات في المغرب الأوسط غالبًا ما تتخذ وجهًا مذهبيًا، أظهرته الدولة العبيدية التي ابتدأت بسياسة التنكيل والتعسف. فحدثت فوضى أدمت كيان البلاد وأثرت في سير الأمور حتى بعد انقضاء حكمها.

إن سقوط الكيانات السياسية الكبرى، كالرستميين والعلويين مثلاً، لم ينهِ أثرها، إذ بقي حضورها العلمي والدعوي ممتدًا في فضاءات الصحراء والمراكز البعيدة.

إن الاختلاف بين الجماعات لم يكن دائمًا عقديًا خالصًا، بل كثيرًا ما تداخل مع اعتبارات العصبية والهيمنة والجغرافيا، الأمر الذي جعل بعض الجماعات، يكون لها ضعف التأييد القبلي، وكذا غياب مقر دائم لها، حال دون قيام دولة مستقرة وواضحة المعالم. فكثيرًا ما كانت تظهر في هذه الصراعات في محاولة منها للبروز على الساحة السياسية.

مثل ذهب السودان رمز القوة الاقتصادية المهيمنة على الجماعات الدينية، مما جعلها محط صراعات شديدة، خصوصًا في وجه الأمويين بالأندلس والفاطميين.

أظهرت الدراسة أن الموقع الجغرافي للمغرب الأوسط، شمالًا وجنوبًا، مكّنه من لعب دور محوري في شبكات المبادلات الإقليمية والعابرة للصحراء. كما تبين أن تداخل العوامل الطبيعية والبشرية والسياسية أسهم في تشكيل بنية اقتصادية متنوعة ومترابطة، وكشفت المعطيات التاريخية عن مركزية تيهرت كعقدة استراتيجية في الربط بين المراكز الحضرية والأسواق الخارجية. هذه النتائج تفتح المجال لدراسة أوسع حول أثر التحولات السياسية والطرق التجارية على تطور البنية الاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة.

الملاحق

ملحق يمثل توزيع الجماعات الدينية بالريف الصنهاجي والزاب بالمغرب الأوسط خلال الفترتين: القرن 2 و 3 الهجريين

الحصن	الجماعة الدينية	الزمن	المصدر
* حصون متيجة (سوق إبراهيم، غطلاس، نمالتة، فالوس، هاز، المدينة الحسنة، مدكرة، المدينة الخضراء). * حصون تلمسان: أرشقول، الغدير، حصن مرنيسة البير، حصن ابن زيني، حصن الفروس، حصن الوردانية، حصن هنين، حصن تونت، حصن تابحريت.	"السليمانية" الزيدية	القرن 2 هـ	* اليعقوبي، البلدان، ص-ص، ص، 191-192، 196. * البكري، المسالك والممالك، ج2، ص-ص، 240-265.
مدينة العلويين "يعلى" ابن باديس+ تلمسان. وجنوب تلمسان قلعة ابن الجاهل	دولة الأدارسة في المغرب الوسط	174 هـ	* اليعقوبي، البلدان، ص 196. * البكري: المسالك والممالك، ص-ص 227-241.
سطيف، حصن بلزمة، نقاوس أحة (وهي على جبل)، ومدينة أربة، جيجل ومرسى قلعة خطاب، أسكدة، ومرسى ملر، مرسى دنهاجة، باغاية، أوراس، تيجبس، ميلة، حصون مليانة، قسنطينة، تبسة، المسيلة، بسكرة، إيكجان.	الشيعة الإسماعيلية	184 هـ 2	* اليعقوبي، البلدان، ص 190. * البكري: المسالك والممالك، ص-ص 227-241.
حصون تاهرت، الحصن الذي على ساحل البحر (مرسى فروخ). حصن برقجانة، قرية مسكيانة، شلف، بني واطيل.	الإباضية الأم	144 هـ 160 هـ	* اليعقوبي، البلدان، ص 195. * البكري: المسالك والممالك، ج2، ص241.
مدينة يلل	إمارة ابن مسالة الإباضي	القرن 2 الهجري	* اليعقوبي، البلدان، ص 195.
حصن جبل الأوراس، باغاية	إباضية نكارية أبو زيد مخلد	316 هـ	ابن خلدون، العبر، ج7، ص-ص 18-19
حصن أيزرج - تبطيوس	المعتزلة	القرن 2 الهجري	* اليعقوبي، البلدان، ص 195. * البكري: المسالك والممالك، ج2، ص254.
حصون بنو دمر من زناتة وبنو برزال بينه وبين هاز مرحلة	شراة	القرن 2 الهجري	* اليعقوبي، البلدان، ص 191.
حصن ابن كرام	الكرامية	القرن 2 الهجري	* اليعقوبي، البلدان، ص 191.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم:

– سورة النساء، الآية 143.

– المصادر:

1– الإدريسي، أبي عبد الله، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمود الحسني المعروف بالشريف (ت 560 هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق كثيرون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422 هـ/ 2002 م، ج2.

2– البغدادي، أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن مُحَمَّد (ت 429 هـ)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها، تحقيق مُحَمَّد عثمان الخشنت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة.

3– البكري، أبي عبيدة عبد الله بن عبد العزيز بن مُحَمَّد (ت 487 هـ)، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ/ 2003 م، ج2.

– المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

4– ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد الإشبيلي التونسي (ت 808 هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421 هـ/ 2000 م، ج 4، ج 6، ج 7.

5– الدرجيني، أبي العباس أحمد بن سعيد (ت 670 هـ)، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ج 1، ج 2.

6– الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ / 1996 م، ج5.

7– ابن أبي زرع القاسي ، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت 741 هـ) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط ، 1972 م.

8– أبي زكرياء ، يحي بن أبي بكر (474 هـ) ، سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الاسلامي ، بيروت، لبنان، 1402 هـ/1982 م.

9– الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، (ت 865 هـ)، كتاب السير، تحقيق أحمد بن سعود السيابي ، ط2، وزارة الثراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، 1412 هـ/ 1992 م، ج1.

10- الشهرستاني ، أبي الفتح مُحَمَّد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548 هـ)، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز مُحَمَّد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، 14 شارع جواد حسن، القاهرة، 1387هـ/ 1968 م، ج1.

11- ابن الصغير المالكي، (القرن الثالث الهجري)، أخبار أئمة الرستميين تحقيق مُحَمَّد ناصر، ابراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406 هـ/ 1986 م.

12- ابن عذارى المراكشي، أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد (حي 712 هـ)، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة الصادر بيروت، 1369 هـ/1950 م، ج1.

13- ابن المنظور، أبو الفضل، مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 630 هـ) ، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، 1401 هـ/ 1981 م.

14- الوسياني ، أبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان (ت ق6)، سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، ط1، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، 1430 هـ/ 2009 م، ج1، ج2.

15- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284 هـ)، البلدان، تحقيق مُحَمَّد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- المراجع:

1- إسماعيل محمود، الأدارسة في المغرب الأقصى (172هـ - 375هـ) حقائق جديدة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 1409هـ / 1989م.

2- بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية (160هـ - 296هـ / 777م - 909م) دراسة في الحياة الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2، جمعية التراث، القرارة، 1414هـ / 1993م.

3- عبد الكريم يوسف جودت، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون - الجزائر.

4- العربي إسماعيل، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1403هـ/1983م.

5- بن عميرة مُحَمَّد، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1404هـ / 1984م.

6- لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة
مقدمة	2
أ/ أهمية الموضوع وإشكاليته	2
ب/ المنهج	3
ج/ الصعوبات	3
د/ عرض الموضوع:	3
هـ / نقد المصادر والمراجع	4
الفصل الأول: التمركز الجغرافي (والعقائدي) للجماعات الدينية بالمغرب الأوسط خلال القرن الثاني للهجرة	
1- الجماعات الدينية التي تمركزت بالريف الصنهاجي	8
1-1- السلمانية والإدريسية	8
1-2- الشيعة الاسماعيلية (العبيدية/ الفاطمية)	11
2- إقليم الزاب	13
3- إقليم الصحراء	14
4- عقائد الجماعات الدينية	18
4-1- الزيدية والإسماعيلية	18
4-2- الإباضية	21
4-3- عقائد الشراة (المحكمة الأولى) هؤلاء الفرقة	22
4-4- عقائد الواصلية:	24
4-5- الكرامية " أهم عقائدها "	25
الفصل الثاني: الجماعات الدينية والمشروع السياسي	
1- مدلولات النسب في القبائل: قراء في مصطلحي "آل" و "بنو" في السباق الامتداد النسبي	27
2- القبيلة والجماعات الدينية في المغرب الأوسط: من الانتماء إلى الطموح السياسي	28
2-1- الإباضية بين الارتكاز القبلي وبناء الكيان السياسي:	28
2-2- القبائل البربرية والمشروع السياسي للعلويين في المغرب الأوسط "الأدارسة، السليمانيين".	42
2-3- الشيعة والقبيلة: من الدعوة المذهبية إلى الطموح السياسي	48

الفصل الثالث: الدور الاقتصادي للجماعات الدينية – المغرب الأوسط	
1- النشاط الزراعي والرعوي في المغرب الأوسط:	55
2- النشاط الصناعي والتجاري	60
خاتمة	74
ملحق يمثل توزيع الجماعات الدينية بالريف الصنهاجي والزاب بالمغرب الأوسط خلال الفترتين: القرن 2 و 3 الهجريين	76
قائمة المصادر والمراجع	77
ملخص الدراسة	79

ملخص الدراسة

عنوان الدراسة: الجماعات الدينية والعقائدية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، ويندرج ضمن دراسات التاريخ المذهبي والسياسي والفكري للعصر الوسيط.

حاولت الدراسة الإجابة عن إشكالية مركزية تتمثل في: كيف يمكن تفسير اختيار الجماعات الدينية والعقائدية في المغرب الأوسط للحصون والمواقع الموروثة مراكزا لانطلاق دعواتها ومشروعاتها السياسية؟ وهل كان الانتماء القبلي وحده محددًا للانتماء المذهبي، أم أن ضرورات السياسة وتوازن القوى كانت وراء هذه الخيارات؟ وكيف أسهمت العصبية القبلية في دعم أو إضعاف هذه الكيانات؟

تناول **الفصل الأول**: التمركز الجغرافي والعقدي لهذه الجماعات، من خلال إبراز طبيعة الحصون والمعاقل التي اتخذتها قواعد لانطلاق دعواتها، إذ توزعت على ثلاثة أقاليم: الصنهاجي، والزاب، والصحراء، مع تحليل عقائدها الأساسية وما شكلته من أطر فكرية ودينية موجّهة.

أما **الفصل الثاني**: فوقف عند العلاقة بين الانتماء القبلي والمشروع السياسي، مبرزًا كيفية توظيف الامتداد التاريخي للقبائل في تأسيس كيانات سياسية قوية رغم ما اعترضها من صراعات مذهبية وعقدية وسياسية، سواء بين الجماعات فيما بينها أو داخل الجماعة المذهبية نفسها، مما أدى أحيانًا إلى انقسامات أضعفت تماسكها.

وجاء **الفصل الثالث**: ليسلط الضوء على الدور الاقتصادي لهذه الجماعات والقبائل، والذي وفر لها الموارد الضرورية لتحرير قوتها الفكرية والسياسية، ومكّنها من فرض حضورها كمنافس أساسي في ساحة المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.

خلصت الدراسة إلى أن تمركز الجماعات الدينية والعقائدية في الحصون لم يكن مجرد خيار عسكري وجغرافي، بل كان انعكاسًا لتوازنات سياسية وقبلية. وأن العصبية القبلية شكّلت عاملًا حاسمًا في صعود هذه الكيانات أو انهيارها، في تفاعل جدلي مع البنية الاقتصادية التي وفّرت شروط استمرارها.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط، الجماعات الدينية، القرون الوسطى، العصبية القبلية.

Study Abstract

Title of the Study: Religious and Doctrinal Communities in the Central Maghreb during the Third and Fourth Hijri Centuries / the Ninth and Tenth Gregorian Centuries. This work falls within the field of studies on sectarian, political, and intellectual history of the medieval period.

The study sought to address a central question: How can the choice of religious and doctrinal communities in the Central Maghreb to settle in inherited fortresses and sites as bases for launching their missions and political projects be explained? Was tribal affiliation alone the determinant of sectarian belonging, or were political necessities and the balance of power the main drivers behind these choices? And to what extent did tribal solidarity contribute to strengthening or weakening these entities?

The first chapter examined the geographical and doctrinal concentration of these communities by highlighting the nature of the fortresses and strongholds they adopted as bases for their missions. These were distributed across three regions: the Sanhaja, the Zab, and the Sahara, along with an analysis of their fundamental beliefs and the intellectual and religious frameworks they established.

The second chapter explored the relationship between tribal affiliation and the political project, emphasizing how the historical extension of tribes was utilized to establish powerful political entities, despite the sectarian, doctrinal, and political conflicts that confronted them—both among the communities themselves and within the same sectarian group. These conflicts often led to divisions that undermined their cohesion.

The third chapter shed light on the economic role of these communities and tribes, which provided them with the necessary resources to sustain their intellectual and political momentum and enabled them to assert their presence as major contenders in the Central Maghreb during the third and fourth Hijri centuries.

The study concluded that the concentration of religious and doctrinal communities in fortresses was not merely a military or geographical choice, but rather a reflection of political and tribal balances. Tribal solidarity proved to be a decisive factor in the rise or decline of these entities, in a dialectical interaction with the economic structures that ensured their continuity.

Keywords: Central Maghreb, religious communities, Middle Ages, tribal solidarity.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People'sDemocraticRepublic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues

الرقم: /2024

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضي (ة) ادناه :

السيد(ة): عناضية الياقوت

الصفة(طالب، استاذ باحث، باحث دائم): طالبة

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 119990995013300

الصادرة بتاريخ : 2022.11.07 عن دائرة : أولاد دراج

المسجل(ة) بكلية: العلوم الإنسانية قسم: التاريخ

تخصص: الغرب الإسلامي تحت رقم التسجيل: 202035077924

والمكلف بإنجاز اعمال بحث(مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، اطروحة دكتوراه). ماستر

عنوانها: الجماعات الدينية والصفائية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين

اصرح بشرفي بانني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في انجاز البحث المذكور اعلاه

المسيلة في: 2025/09/24

امضاء المعني (ة):

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28-07-2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.